فكتور حكيم

ميناء القدر

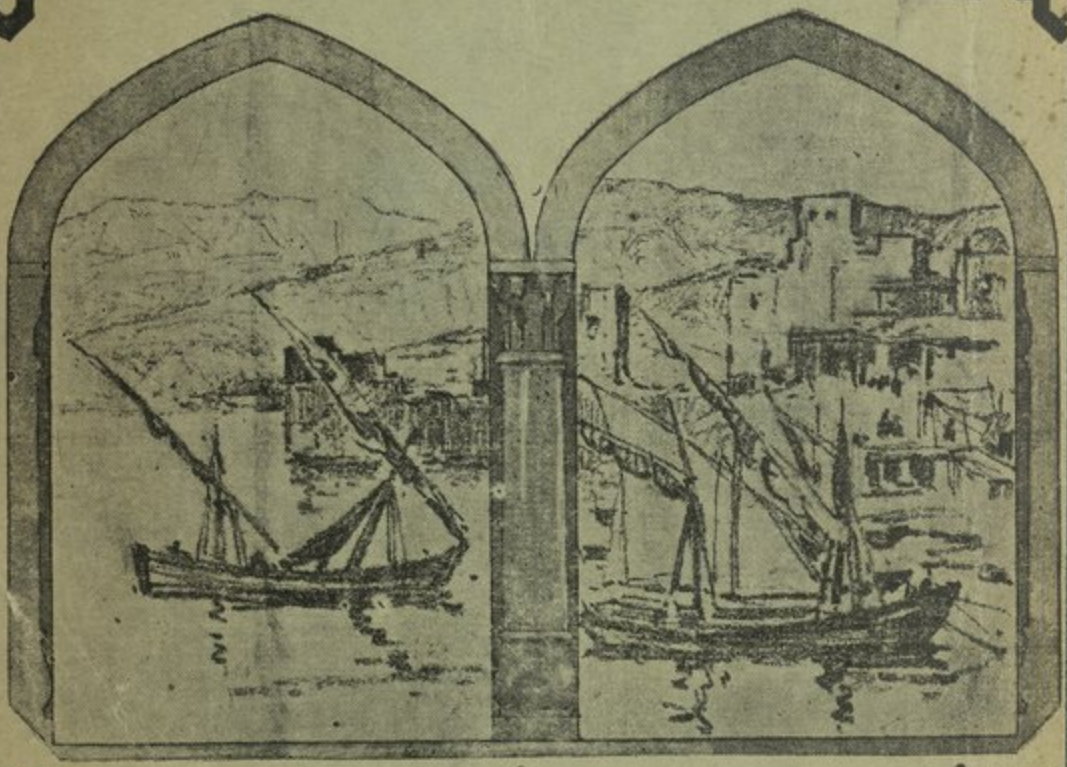

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT

A.U.B. LIBRARY

892.73
Ha44bmi A

قمراء

بريشة جورج بولس خوري

126-396

الملكة ميراخت

بريشة جورج بولس خوري

مقدّمة
لسعيد عقل

كلامٌ على القدر، لغز الشرق الابديّ (وحيثُ للحبّ بذاته فصلٌ ولا ابهى!)، كيف يمكن تصوّره الاّ في اطار من قبالة البحر، ذي النداء السحريّ الذي يشيلُ معاً بقلبكَ وبكرة الارض ؟!

تُرى، اذن، لروعته البحرية، المطلسمة بالقدر، كان موضوع السندباد أجمل ما صدّر العرب الى العالم ؟

لقد طالما أخذتُ بطائفة من قيمهم الخيرة البارعة، كحدّة التقدّمية في بوادر لعمر يمكن الائتمام بها لاحداث نهضة لا يقف بوجهها حتى المعتقد، أو كلمة المأمون تفجّر كلَ أرسطو: «نظرتُ فلم اجدْ أجملَ من النظر في عقول الناس!» او ـ على الأخص ـ حكمَ لعليّ تحفزكَ على التساؤل: كيف يسع غزّارة بريتْ في القرن السابع ان تبلغ هذا المبلغ من تفتيق سرّ الحياة في خاطرة أنيقة كالشمس؟

الا انه، برغم من سطوّ هذه الفرائد على ذهن المنقّب عن كنوزهم، يظل للخيال الطريف الذي أطلع حكايات السندباد نكهةٌ خاصة بين جميع أطايب المقدّرات.

تلك الحكايات ؟ لسوف يُهرق في تعقمها واللهو حولها حبرٌ كثير.

هذا فكتور حكيم ـ ذو الريشة التي تضارع الازميل الفلورنسي ، في لغة باريس ، احدى وسائلنا الى الجمهور الكوني ـ يفتتح اليوم بلغة العرب ، وقد افتُتن بها حديثاً ، كلاماً ولا اعمق على موضوع المواضيع في الشرق .

من مرفأ يشرّفه بأن يدعوه بيروت ، اطلق ـ على بركات الريح ـ سفينة السندباد ، بطل القلق الذي لا يهدأ . ثم أطلقها كرّةً أخرى . وهكذا وهكذا حتى لتمرّ الحياة كلها متسلسلة في مغامرة السائح العجب .

ترى سندبادُه هو العقل البشري ـ جميعاً بما فيه القلب ـ والبحر هو الأزل ؟

يا للأسئلة الأنيقة التي تأخذ في الالتماع لك ، كلما أوغلتَ في مرافقة هذا الجازون الفكريّ ! مرهفة هي ، كأنها تماثيل من رخام تكاد ـ لوفرة ما افتُتنّ في نحتها ـ تهوي من افاريز البرتنون على العقل . وتغدو احيانا تفاحة تقدمها لك ـ وقد عصف عاصف الريح بالبحر جميعاً ـ يدٌ لحواء خرجت من اللجة تقول : الجنة ؟ كذب كذب ! ما كانت الجنة في عدن . انها وستبقى في البحر .

هنا مَسّ فكتور حكيم أطرف وتر ، وأغناه . بل قبض على الغنى نفسه أو أجاعه اليه . قبله كان العزف كله على هذه الخيطان الدقيقة التي ترتجف على العود . فرفعه الى المستويات العلى ، واذا هو يندفق الى الاذن والحلق وغصص الصدر ، من الحبال المشدودة على مركب عتيّ يغالبُ الاعصار وجبال الموج .

رحلة ـ أغنيـة ! كبرى كالحيـاة ! ! اذ السفينة ـ العود متنقلة ، لا تهدأ، على أصابع الوجود المهيب . أو تراها ستقف في ميناء؟ انها ان فعلت أصبت بدوار ، وخلت الميناء ستتقلع جملةً من على صخرتها الازلية ، ترمي بنفسها في المركب ، رفيقةً لكَ ولأحلامكَ المذهبة الكبار، جاعلةً منكَ مخلوقاً مترف الوجود : مرة مزيجاً من شيطان و ملاك، صلصال وخاطرة، ومرة لفظةً في كتاب، يعمل بها المؤلف ما يشاء ، ولكن في كلا الحالين انسانا يلهو بتفكيك اهوائه وتدميرها ثم صبّها من جديد وتركيبها في المكان الأخلق ، حتى ليصنع نفسه برمتها أخرى المقدرات ، أخرى البهاء .

هذا الموضوع ؟! انه لا أجراً ولا أجلّ . أعنف من اعمالِ ظفر في الحجر. يخط الكلمة الباقية : الانسان لا يكون الا أوان يجازف . يجازف بوجوده وبلا وجوده . يجازف حتى بحبه الغنيّ العظيم .

ماذا ؟ أيكون الله قد بدأ الكون هنيهة قال : سأخرج مما انا . اصنع من شغفي بالقوة ما لا يكتنهه من أصنعهم. وتكون لذّتي في ابقاء اللغز ـ لغز الوجود ـ وقفاً عليّ ، مباعداً بماهية عنصرهم ، مباعداً حتى ليظنون انهم، عليّ انا ، لغز ؟! وتبدأ رحلتهم فيه ، رحلتهم ... اليهم، وبهذا ، لربما ، اليّ !

سعيد عقل

زحلة ، كانون الآخر ١٩٥٦

الاهداء

الى جدتي لأمي

المرحومة

ام عبدالله

892.78
H155miA

فكتور حكيم

ميناء القدر

قصة بيروتية

بيروت
١٩٥٥

المقدمة

حلت ظروف غريبة على السندباد فجعلته شاذاً عن القاعدة المألوفة ، العوبة من الاعيب الدهر ، وتبدلت اطواره وحركات النفس فيه، فبينما كان في الماضي القريب من اهدإ الناس خلقاً ينهج نهج التجار في طلب الرزق ، في الشراء والبيع ، لا يساهم الا في الاعمال التي تعود عليه بالنفع ، انقلب مغامراً يتعرض للاخطار ويستلذها فلا يخشى العاقبة . ويجازف بكل ماهو عزيز عليه فذاق مرارة الموت مراراً وخابت آماله كلما نجا من الاخطار ، فجعل من سيرته اسفاراً ، رحمه الله .

ذلك هو السندباد صاحب السيرة ، وقد لا تعرفونه تمام المعرفة ، اما انا فادرى به من غيري لان حياته كحياتي ، غريبة عن اطوار الناس .

بلغت العقد الثالث من عمري ولم يحصل لي شيء يذكر ثم خرجت من حياتي العادية خروج الممثل الذي ينتهي من القيام بدور يمثله في رواية، فيستأنف دوره في الحياة ، غير انني علقت بدور خطير امثله ، الا وهو الاتصال بعالم الغيب .

يا لها من اسرار رهيبة ادركتها ، فيها سر كامن بضمير الزمان ، وقد باتت عندي حقيقة ملموسة ،

قصة البيت المهجور

اسمي شريف الاعثر من اهالي مدينة بيروت ، تنتمي عائلتي الى اسرة بغدادية تنحدر من آل السندباد الشهير بالبحري. ومن غريب الصدف ان جدي كان بحريا وكثيراً ما كان يحدثني وانا طفل ، عن مغامراته في عرض البحار ، فيشوقني الى ما في الغربة من مشقات تغلب عليها هو بفضل ساعد مفتول وارادة لا تقهر .

عثر جدي يوماً في اثناء احدى رحلاته هو ورفيق له ، في جزيرة ، على كنز من الدنانير الحمر فاقتسماه بعد ان تحقق لديهما ان ليس في المقاتلة بينهما من فائدة ، لما كان يشهد للفريقين من شدة وبأس . وهما من العمالقة الذين لا يدركون للخوف معنى ، لهما في البطش ايام مشهودة . فتمت القسمة بدون كثير جدال . ثم عاد الفريقان الى ارض الوطن . فنعم جدي بثروته ، وترك الملاحة ، اما رفيقه فاعاد الكرة وسافر بعد ان دفن الكنز في بستان له مجاور لبيته ، ثم انقطعت اخباره وورثه اولاده ، فاسرع جدي الى شراء بيت رفيقه مع البستان المجاور ، اعتقاداً منه انه سيعثر على الكنز الدفين ، وعبثاً حاول العثور عليه ثم مات .

كان والدي لا يبالي بتلك الرواية ولم يعرها كثير اهمية ومن قوله لي : « خرافات ! اساطير لا اساس لها ولا اصل ، رحم الله جدك لقد

اقبل على الخرف في آخر ايامه وكانت روايته وهما وخيالا ».

ثم هجر اهلي هذا البيت لما اصابهم فيه من رطوبة الجدران القديمة النزازة ، وعزم والدي على بيعه فلم يتوفق ثم مات وغدا البيت من نصيبي .

فانتقلت الى هذا البيت وسكنت فيه لان رواية جدي كانت لم تزل راسخة في ذهني ، فكنت كلما انتهيت من اعمالي في ميناء بيروت واسواقها ، افتح باب البستان فيقشعر بدني من صرير الاقفال الظاهرة عليها آثار الصدإ وصيحة الخشب المنتهي من الهرم ، لكنني احتفظت بكل ما في البستان على ما كان عليه لعلني اعثر على الكنز ، فكانت تعاودني الذكريات القديمة عند مشاهدة بركة الماء والسور المصنوع من الحجر الرملي ، وعلى الحد الشرقي خط الصبار والرمانتين ، وشجر النارنج والزيتونه الكبيرة وعلى مقربة منها تينة مكلسة . بينما انا احفر الارض في طولها وعرضها ،

ولما شعرت بالفشل المحقق ، تعلقت بتلك البقعة المهملة ، فزرعت فيها البقول ، وعالجت الاشجار القائمة ، وغرست اغراساً جديدة اخذت تنمو بسرعة ما عدا ليمونه واحدة استقرت في مكانها ، وهي باقية على شكلها الاول ، حاولت ان اقتلع تلك الغرسة العنيدة ، الا ان مظاهر الحياة كانت باقية عليها فتعجبت وقلت :

ـ حرام !

وفيما انا احفر حولها ذات يوم، عمق المعول في الارض فانهارت، وكدت اقع لساعتي وانا ساع لاخراج المعول من مكانه. فاذا بالحفرة قد اتسعت وعمقت، فكشفت عن حلقة كالخاتم لاصقة ببلاطة هي اشبه شيء بحجر الضريح، فانقطعت انفاسي وصحت مذعوراً:

— عسى ان يكون هذا مكان الكنز الدفين.

قبضت على الحلقة ورفعت البلاطة بعد كد وجد، فظهر سلم رخامي نزلت درجاته فاذا هي تسع واربعون تؤدي الى دهليز مسقوف يغور تحت ارض البستان الى مدى بعيد.

ضاقت نفسي لاول وهلة فتراجعت وصعدت الى البيت وتزودت مصباحاً وشيئاً من القوت والماء، وعدت مسرعاً الى الدهليز. فشعرت برجفة ممزوجة بلذة فائقة، كأن دافعاً سريا دفعني الى بطن الارض.

واستأنفت سيري بين الصخور والحجارة اتفقد مخابىء التلة ومعارجها، الى ان وصلت الى منطقة يسيطر عليها الظلام والموت، فيها غرف عديدة تتعاقب ابوابها كأنها قصر الفناء، وقناطر ونوافذ لاصقة بالتربة الممزوجة بعظام.

وتبينت على ضوء المصباح بقايا من معدات الملاحة: من مجاذيف وقلوع وشباك، فباتت الارض ملساء وكأنها مبلطة.

ثم انفتحت امامي مغارة هائلة كمغارة السيد الخضر ظهرت فيها

آثار للحياة يطير فيها البوم والوطاوط ويتدلى من سقفها العنكبوت .

واذا بالجوف قد ضاق ، وبالانحدار قد زال ، فلاح من بعيد نور ضئيل ، وما ان تقدمت حتى ظهر منفذ يطل على البحر

الرحلة الاولى

فطرة الطبيعة

اقبلت على الشاطيء فشاهدت جماعة من البحارة يتأهبون للسفر ، وجوههم بيضاء مائلة الى الاحمرار ، وعلى رؤوسهم طواق مستطيلة ، وقد تحزموا باحزمة قرمزية ، فراعني منظرهم لانهم كانوا يتحركون كخيالات على حائط ، ويتقدمون بهدوء نحيف نحو سفن كانت راسية امامهم ، شاحب لونها لا يحجب منظر الافق ، تشابه الهلال بحدبة اسفلها ، على مقدمتها رأس فرس ، وتنتهي مؤخرتها كذيل سمكة .

التفت الى الشاطيء فاذا به شاطيء بيروت ، ولكنه مختلف عما هو عليه اليوم ، وقد بسطت على رماله الكثيفة آنية من خزف وزجاج ، وجرار خمر وتماثيل واقمشة لم اعهدها في ايامنا هذه .

عدت على اعقابي مذعوراً ابحث عن منفذ المغارة فلم اجده ، وكان قد تبدل المنظر كأني في حلم .

وفيما انا اركض اصطدمت باحد البحارة فامسك بي ، وبدا عليه ان منظري قد ادهشه ، فاحاط بنا جمع غفير وظهرت على الجميع علائم التساؤل ، فقلت لهم :

— لست انا بغريب . لم يبالوا بكلامي كأنهم لم يسمعوه ، فاخذوا يتداولون بامري بلهجة لم اتمكن معها ان اتبين معنى الكلمات .

وبعد لحظة كنت في اثنائها موضوع اهتمام الجميع يتأملون بشكلي وثيابي ، دنا مني قائدهم فبدرت منه اشارة فهمت منها انه يأمرني بنقل رزمة من السلع الى ظهر احدى السفن ، وكان رجاله يسرعون اليها لتجهيزها واعدادها للسفر .

فامتثلت وتبعت البحارة وساعدتهم على نقل البضاعة وتركيب القلوع الى ان اقترب موعد السفر . فاخذ زئير الرياح يتغلغل في القلوع ، وما ان رفعت المراسي حتى شعرت برهبة خفية ، وادركت فوراً انني قد تسلقت السنين والاجيال ، وانتقلت فجأة الى عصر مضى برفقة قوم زالوا من الوجود ، وهم الآن في عداد الاموات .

اختلطت بالبحارة فجعلت اتبين كلامهم ، اخاطبهم بلغتهم المطوية في ضمير الزمان ، لغة جماعة قطعوا البادية والجبال والاودية . فوصلوا الى صيدون وصور وجبيل وبيروت ، واستأنفوا سيرهم على الامواج ، وشيدوا لابناء جلدتهم قصوراً بين السماء والماء ، بفضل المسافات التي كانوا يقطعونها والبلدان التي كانوا يشيدون عليها المدن والمستودعات ويقيمون عليها المعابد .

كانت رحلتنا طريفة حقاً ، مليئة بالعجائب والغرائب ، تدفع بنا من البحر الابيض الى البحر الاسود ، ثم نعود فنتغلغل بين الجزر والصخور ، ننقل الحديد والخشب والنحاس والطيوب .

كانت قافلتنا المؤلفة من سبع سفن تحت قيادة الربان عبد الملك الذي جعل يقدرني لما بدا مني من تدبير الامور ، ومن خبرة واسعة هي تراث الاجيال المتراكمة على الانسانية بعد زوال رفاقي ، فخفيت عليهم اسرارها فنسبوا ما انتهيت اليه الى نبوغي .

ومن ثم ادخلني عبد الملك في خدمة نسيبه الربان هيماس وهو شاب في مقتبل العمر يقود سفينة جديدة ، فكلفت باعانته وارشاده .

كان يلوح لي في اول ايام رحلتي ، ان عبد الملك هو ذلك البحري رفيق جدي وصاحب الكنز الدفين، ثم زال عني هذا الوهم على ممر الايام.

ومن غريب ما اذكره عن طريقتنا في الملاحة ، ذلك المزيج ما بين التقليع والتجديف ، فكنا كلما هبت الريح نعمد الى تشغيل القلوع ، وكلما همدت اعتمدنا سواعد المجذفين .

وكنا نقيس المسافات من مؤخرة جزيرة او ارض ، الى مقدمة سواها . فكان كلما اقترب منا دلفين يبدو منه حركة غريبة مضحكة تشابه دلال الطفل على اهله ، فنقذف له قطعاً من اللحم يلتهمها فيكافئنا على جميلنا بهدايتنا الى الطريق القويم ، حيث الموانىء الآمنة ، والمضايق الخالية من الاخطار . فكان يتوسط مجرى التيار ونتبعه بتصرف .

وبعد جولات عديدة تشابه دلال الدلفين في حركاته ، مكثنا مدة في الجزيرة العويصة من جزر الباليار حيث يعيش قوم من شعبنا اصلا ولغة ، ثم واصلنا طريقنا الى ايبريا وقطعنا الغديرين في مضيق قدس

بين الجبلين فدخلنا في بحر الظلمات .

طوينا الجزر واقتربنا من الشواطىء الغربية حيث العبيد السود ، فشاهدنا بلدانا فيها من اغرب الاقوام واوحشها .

فاوفد عبد الملك شرذمة من رجاله بقيادة صديقي هيماس فرافقته واستصحبنا بعض رجال يفهمون لغة القبائل ، وجاءنا رسول من ملك تلك البقاع وهو الملك عبدون فاستقبلنا وامر رجاله بوضع الهدايا على الشاطىء وهي قطع من العاج والماس ، فبسطنا بدورنا سلعاً مختلفة من عقود الزجاج البراق الملون والاقمشة والاكواب ، ففرح السودان واختطفوها وهم يرقصون ويهزجون .

ومن تبادل الهدايا نشأت قاعدة المقايضة وهي اول التجارة وسرها الازلي .

وفهم السودان مقصدنا ، فتولدت في ذهنهم فكرة التفاهم ، وكانت اول معاهدة عقدوها .

دعينا لحضور القرابين في غابة كثيفة ادخلنا اليها بترتيب مرسوم منعاً لتشابك الشعبين ، فجلسنا على الارض حول النار ، وذبحت لنا الذبائح فتصاعدت رائحة اللحوم .

وظهر لنا ان هذه البقعة فيها من جميع انواع الطيور المختلفة الالوان ، والاشكال والاصوات والاوصاف والتغاريد . منها ما كان يصفر ، ومنها ما كان يترغل ومنها ما كان يزغرد او يتكلم .

فاخذ السودان يرمون بشباكهم على الاشجار الواطئة ، فتمكث

الطيور في مكانها لا تستطيع الحراك . فنصطاد حية وتوضع في اقفاص مصنوعة من اعواد النخيل وتقدم هدية الينا .

اثيرت حماسة رجال القبائل الذين جعلوا يرقصون امامنا ، فشاهدنا الطبيعة على فطرتها ممثلة فيهم ، وجوههم لامعة ، في عيونهم لهيب ، على اجسامهم قطع من النحاس والمعادن وزينة من الجلود والرياش : والاغصان تتدلى منهم كاذيال الابل وهم يرقصون زرافات وقبائل فتبدو منهم قهقهة طويلة متواصلة تحاكي اصوات العصافير .

وفيما نحن نتسامر ونشرب من خمر النخيل ونأكل من لحوم الذبائح ، هب فجأة هواء شديد عاصف . فاذا بقطيع من النعام المفترسة تهبط هذا المكان ضاربة الجو باجنحتها . فصاح عبدون الملك :

ـ لا تتركوا امكنتكم ، فرائحة الذبائح تحمينا . عليكم بالطبول والرماح .

فلما حلت النعام في ساحة العيد ، اخذ العبيد يضربون طبولهم ويدقون رماحهم على تروسهم . فتضعضع شمل النعام واقتربت من اتون النار ، فاحترق قسم منها وهلك القسم الآخر بسهام العبيد وعصيهم ، فاقتسمنا ما سلم من ريشها ، ثم ودعنا الملك عبدون وعدنا الى السفن .

ابحرت السفينة ومقصدنا الابعاد الشمالية ، فلم نتوقف الى ان دخلنا منطقة يسيطر عليها الضباب الكثيف الذي اخفى علينا نور الشمس ، وقد احتجبت السماء بالسحاب فكان يصعب علينا ان نتبين الطريق لان الجو كان قد اختلط بالبخار .

وظهر لنا فجأة ان الدنيا قد زالت وان قرص السماء قد اتصل بخط البحر اتصالا مستحكما ، كأن جميع اقفال الدنيا قد سدت بوجهنا لا ممر في هذا المكان ولا مفر منه .

وعصف الهواء وانقطع عنا ذلك النور الخفيف الباهت ، وبات البحر اسود كالليل ، فضاقت صدورنا وما برحنا نسمع ضجيج الامواج المتلاطمة ، الى ان اعترض طريقنا غيم احمر رهيب شكله كالانسان العالق في الهواء ، فنفخ على سطح البحر الذي ازداد هياجه ، فارتفعت السفن ارتفاعاً مخيفاً وتشتت هاربة .

وقيل لي ان نفخة واحدة محكمة من نفخات شبح الغيم ، كانت كافية لاغراق القافلة بكاملها .

ثم لاح نور الشمس فاخذ شبح الغيم يذوب ذوبان الشمعة ، ثم تحول الى مطر غزير يتساقط فهدأ بسببه الموج الشاهق .

وكنا في اثناء هذه المحنة قد قطعنا مسافات طويلة لا تحصى فضللنا الطريق وابتعدنا عن القافلة فصاح هيماس :

ـ ان قوة شيطانية تبعدنا عن الطريق القويم ، وقد اصبحنا لوحدنا .

فاجابه بحري قديم :

ـ المياه هنا مسحورة .

وقال آخر :

ـ هي جزيرة المعدن الخلاب . نجاتنا صعبة .

فانفتحت في جوف البحر فجوة كأنها ثغر الدنيا، واستجلبت سفينتنا تريد امتصاصها، ثم تصاعدت السفينة لان ضغط الاعماق الهائجة دفعنا الى اعلى. فلفظنا الموج المتصاعد الى سطح البحر، ثم قذف بسفينتنا نحو شاطىء الجزيرة التي كانت تلمع تحت اشعة الشمس. فبدت كذئبة رقطاء تعتلي طبقات من المعادن الجاذبة التي قادت سفينتنا الى الهلاك. فاندفعت على صخور الشاطىء وتحطمت وهلك جميع من فيها الا ثلاثة: هيماس، والبحري عبدو بسط وانا.

تسلقنا الصخور المرتفعة وصعدنا الى الجزيرة فتنشقنا هواءها المكبرت، ولمعت امامنا عين صغيرة، اقترب هيماس ليشرب منها. وما ان ذاقها حتى تحول جسمه الى صخرة لا حراك فيها.

وقعت على الارض من هول هذا المشهد المؤثر، فدفعني عبدو بسط الى النهوض واللحاق به الى الشاطىء حيث جمعنا اخشابا مندثرة من بقايا السفينة، وصنعنا منها زورقاً ركبناه، وما ان تقدمنا حتى اعادتنا قوة الجذب فتحطم الزورق على الصخور.

عدنا وشردنا في الجزيرة نبحث عن اسرارها ونتعثر خيراتها. فاذا باشجارها تلمع لمعان النحاس، ومياهها مريبة ومناظرها مشوهة لا اثر فيها للحياة، ولا سبيل للعيش. اما المعادن والاحجار الكريمة، فكثيرة، فيها وفرة من الياقوت والعنبر والكهرباء والقصدير والحديد.

ما امر تلك الايام التي قضيناها ونحن نطوف كئيبين، نعاني مرارة

الوحدة والخوف بعد ان نفد زادنا ، وقد ادركنا الجوع والعطش . ثم نعود الى الشاطىء ننتظر بمزيد الصبر ، نصيبنا من الاسماك الهالكة التي تدفعها قوة الجذب على الصخور .

وكان يعلو البحر مرتفع صخري يتوسطه ثقب تخرج منه مياه تغلي وتتبخر فتتكرر من سموم الجزيرة ومعادنها، ثم تتحول الى نهر ينفذ وسط البحر . ثم تستجمع مياهه بشبه حوض يختلف لونه عن زرقة البحر .

كنا نشرب من هذه المياه ثم نصعد الى الصخرة ننظر الى الافق .

لاحظ رفيقي ان قوة الجذب تتابع حركة دوران دائمة ترسم على وجه البحر خطوطاً عريضة متواصلة بشكل حلقات .

فعاودنا الامل واعدنا صنع الزورق وابحرنا بين التيارات ، فابتعدنا فوراً حتى وصلنا بسرعة لا مثيل لها ، الى ملتقى المياه الحلوة بالملحة ، على حدود الحوض ، الا انه اتانا من خلفه تيار معاكس اعادنا الى الشاطىء بهدوء .

يئسنا لاول وهلة ثم كررنا المحاولة فادخلنا الزورق بعد جهد كبير في حلقة من حلقات التيار المبتعد ، فاذا بها تتسع وتبعدنا عن هذا الشاطىء اللعين ومن جوها المهجور ، فوصلنا الى عرض البحر .

وبعد ثلاثة ايام وثلاث ليال رهيبة ، وكان قد نقص منا كل زاد ، ظهرت على الاثر من جهة الغرب سفينة كبيرة، وما ان اقتربنا منها حتى فقدت توازنها لقوة الجذب التي كانت تنبعث من المعادن الخلابة المجموعة في زورقنا فلاحت من ركابها التفاتة ، واقتربت السفينة من جهتنا ففرحنا كثيراً لانها

سفينة عبد الملك الربان .

فلما صعدنا الى السفينة هنأني عبد الملك بالسلامة فاخبرته عما قاسيناه من اهوال ، وعن ظروف وفاة هيماس فتأثر كثيراً وبكاه بكاء مراً .

فقلت له :

- انني شديد التأثر على فقدان هذا الصديق ، وقد آن لي ان اعود الى الوطن .

فتردد قائلا :

- اتريد ان اخسر صديقاً بعد فقدان نسيبي وحبيبي هيماس ؟ ابق معنا وقد اصبحت منا .

ففاتحته بامر اهلي وابناء جيلي . فقال :

- ليكن لك ما تريد .

فعادت السفينة على اعقابها نحو الجنوب ، وواصلت طريقها الى ان تركنا بحر الظلمات ودخلنا البحر الابيض واتجهنا نحو الشرق .

فلما حان وقت الوصول من حيث اتينا ، دعاني عبد الملك فزودني هدايا ثمينة من العاج وتراب الذهب واللؤلؤ ، وبدوري اهديت اليه شيئاً من معادن الجزيرة وجواهرها فشكرني واوفد من يقودني الى الشاطيء الذي فيه ابتدأت رحلتي . فظهرت ثغرة المغارة ومنها دخلت في الدهليز ، الى ان صعدت الى البستان ، فاعدت البلاطة الى مكانها على باب الثغرة .

كانت زوجتي تنتظرني في البيت بمزيد القلق . وفرح اولادي بعد طول المغيب ، فبعت ما كنت احمله من هدايا واصبحت من اهل الثراء .

اما روايتي فلم يصدقها احد مع انني لبقتها ولم يناقشني احد بما ابديته من تفاصيل .

الرحلة الثانية

المعاكسات

مكثت في بيروت ردحاً من الزمن شعرت فيه بشوق خفي يعاودني عند ذكر الرحلة العجيبة التي كان الدهر قد دبرها لي على هـذا الشكل اتساءل اهي وليدة التوهم او ضرب جديد من ضروب الواقع، واتردد الى الشاطىء لعلي اتوفق الى مشاهدة الميناء القديم، فاعود خائباً الى البيت بعد تأمل طويل، وصراع فكري اليم.

ولم يخطر ببالي ان اكشف على الدهليز، وكأن القدر قد اطبق عليه البلاطة اطباقاً مستحكما.

- عالم الغيب! ومن طرق بابه بدون وجل؟ ان مفتاح المعجزات ليس بمتناول الناس.

صدر مني هذا الكلام بينما كنت جالساً على صخرة بعيدة عن رؤية الناس، انظر الى البستان واشجاره، فاذا بالليمونة العنيدة قدمالت الى اليمين، كأن دافعاً غريباً قد ازاحها فاقتربت منها فوجدت ان البلاطة رفعت عن مكانها، فخفق قلبي ونزلت الدرجات وخطواتي بطيئة لان الارض كانت لم تزل رطبة موحلة بسبب مياه الشتاء المتسربة الى اعماقها، فاستأنفت سيري الى ان وصلت الى الغرف المسقوفة ثم الى قاعة البوم والوطاوط، فلاح اخيراً نور الشمس وتنفست الصعداء.

وعندما خرجت من منفذ المغارة كان المنظر قد تغير تماماً .

ظهر برج شامخ على مقربة من تربة الغرباء وامامه ساحة يمر فيها جنود يرتدون الدروع الحديدية وعلى رؤوسهم خوذ وبحرية معممة يتأهبون لغزواتهم على مشهد من شعب كان يهتف للمرابطين ويذكر اسماء الامراء الميامين .

وفهمت ان القدر نقلني الى ايام فتوحات العرب وغزواتهم في البحر المتوسط ، وفيما انا غارق بافكاري تصدى لي عملاق حاد النظر ، فامسك بردائي واستهجنه اذ قال :

ـ من الرجل يا ترى ؟

وحاوطني جمع من الاهالي يحدقون بي فاجبت :

ـ انا ابن ابي شريف الاعثر ...

كأن مجرد ذكر كنيتي كاف لحل المشكلة .

قاطعني العملاق بقوله :

ـ مالي اراك تتلعثم بكلامك وترتدي هذه الازياء الغريبة ، هل انت من جنود الفرس او من الخوارج وهل اتيتنا منجداً او مخاصماً ؟

ـ كلا يا سيدي انا ابن بيروت ...

ـ اهل بيروت اذا دعوا للخير اجابوا ...

ـ نعم اريد الالتحاق بجيش مولانا القائد الظافر .

هي الحكمة التي اوحت الي هذه البادرة الاخيرة لان المفروض في

القائد ان تطلق عليه القاب الاحترام والتعظيم ، ويظهر ان هذا الاسلوب قد اغضب صاحبنا العملاق فصاح :

- يا لك من احمق ، ليس لنا من قائد ولا من يحزنون ، نحن جماعة السيدة العميصاء بنت ملحان ولم نقبل ولن نقبل عنها بديلا . كبلوه وقودوه الى اعماق السفينة .

فكبلني جماعة من البحرية واكرهوني على العمل بتجهيز السفن وتنظيفها ، ونقل مؤنها شأن الاسرى والعبيد . فكنت كلما احنيت ظهري استغيث من الالم واستنجد الانبياء والاولياء . فسمعني احد الرجال فيما انا اردد اسم السيدة ام حرام رضي الله عنها ، فتعجب وابلغ الخبر الى العملاق فزارني وامر برفع الاغلال من رجلي وقال :

- كيف لا تعرف العميصاء وانت تذكر القابها ؟

فاجبته على الفور :

- مولاي السجان ... وهل لي الملم بانساب الناس ؟

راقه هذا الكلام فافرج عني واتاني بثياب لائقة ارتديتها وادخلني في صفوف المقاتلين فابحرت معه على سفينة واحدة . وبعد ان مررنا بجملة موانيء وصلنا الى قبرص ثم الاسكندرية وبرقة وتونس فالجزائر ، فنزلت بدافع الفضول الى البر اتفقد العمارة والبساتين فضللت طريقاً واخذت استنجد الناس فارشدوني الى الميناء فلم اعرفه .

ومن غريب ما طرأ علي ، ان الجبل كان قد تغير فجأة وان منظر المباني

وازياء الناس باتت مختلفة عما كانت عليه . ولما سألت من حولي عن السجان العملاق وعن المرابطين ، ضحكوا وهزأوا بي وقال لي بحري :

ـ وهل لك صلة بالاموات فتناجيها ، ام اختلط عقلك يا سي شريف... هيا بنا ... واثق انغماوي بانتظارك .

واشار الى سفينة جديدة ، لم اكن اعهدها من ذي قبل .

ما هو هذا السر الذي ادخلني الى طور جديد من اطوار التقلب بعيداً عن الاستقرار ، فوضعني بخانة مهجورة مهملة من خانات الوجود ، كانت قد خصصت لي فيما مر من الاجيال ، فاصبحت كمن عاش ثم مات ثم بعث حيا ، وها انا بحري اصيل موطني المغرب احسن اللغات فاخاطب اهل مالطة والبربر والزنوج والقبائل المتكلمة بالحركات ، وكنت لواثق الغماوي الساعد الايمن .

واثق : ذلك المغامر الخطير الذي يجوب جميع البحار ولا يبالي بالاخطار ، فيساهم بالتجارة حيناً وبالقرصنة احيانا .

اخذنا ننتقل من جزيرة الى جزيرة ومن شاطىء الى شاطىء ، فقطعت سفينتنا حدود البحر الابيض الى جبل طارق ، ودخلت بحر الظلمات باتجاه الجنوب البعيد ، واذا بنو شديد عاصف يهدد السفينة ، فاخذ جميع من فيها يجهدون على القلوع والمجاذيف . يا له من عمل شاق! كنا نكد ونجد ونجاهد والهواء يتصاعد ويعاند فهاج الموج وماج وارتفع ارتفاعاً شاهقاً . وبعد ثلاثة ايام ضاع الامل فحوقل واثق وترجع ثم صاح :

- يا اخوان ، انني لن استطيع ابداً قيادة هذه السفينة .

فضاقت صدورنا وانقطع نفسنا لهول هذا الخبر ، وتحققنا من الموت المحتم !

فتقاذفتنا الامواج وانتزعت جميع القلوع والمجاذيف والصار . وكنا في اثناء هذه المحنة قطعنا مسافات طويلة لا تحصى في جهات غير معهودة ، فتحطمت السفينة على صخور ارض مجهولة فوجدتني مع من نجا من رفاقي تائهاً على الشاطىء وقد اقبل الليل ، وما ان طلع النهار حتى حاوطنا عدد غير قليل من الهنود اخذوا يرموننا بسهامهم فاهلكوا منا كثيرين وهرب الباقون .

وكدت اهلك بدوري اولا باز كبير هرب من يد احد الهنود وحط على عمامتي ، ومد فيها مخالبه عندما حاولت ابعاده . فتوقف الهنود عن مقاتلتنا وصاحوا بصوت واحد وعلامات السرور بادية على وجوههم :

- اهلاً بملك الجزيرة ! قم واحكم علينا بالعدل .

تركوا رفاقي وشأنهم يسرحون ويمرحون بين الصخور ، وقادوني الى العمارة فوصلنا الى حديقة كبيرة فيها من جميع انواع الزهور والطيور ، فاستقبلني كبير البراهمة ورحب بي بشيء من التكلف ، ثم ادخلني الى القصر قائلاً :

- هي سنة عندنا معشر بني فلاذ حين يموت الملك ان يخلفه من يرشد اليه هذا الباز الاليف سليل طيور البلاط ، فيرث الملك الجديد التاج والنساء والاموال .

تسلمت زمام الحكم وقمت بمهام منصبي بمعاونة البرهميين استشيرهم بجميع الشؤون ، الا انني اختلفت معهم لاسباب حسبتها لاول وهلة تافهة. وهي اني لما عرضت علي نساء البلاط اخترت من بينهن الملكة ميراخت لما في اسمها وشخصها من محاسن ومفاتن . ولم اهتم ببقية النساء ويظهر ان هذا التدبير مني قد اغضب اهـل المطلقات واغلبهم ينتسب الى البرهميين اصحاب النفوذ في الدولة .

فلما نشبت الحرب ما بين قوم بني فلاذ وقبيلة السماورة ـ المعروفة باسم جماعة ما وراء الغابة ـ والخصام بين الشعبين يعود الى قديم العهود ، دعاني كبير البراهمة الى خوض المعركة مع رجال الجيش ، فبكت الملكة ميراخت وبكى علي رجال خاصتي واخـذ خادمي الامين حامول يلطم وجهه كأنه يندبني فسألته ما داؤك فقال :

ـ الم تعلم يا سيدي الملك ان مصيرك الموت المحتم ؟ فاذا تخلصت من حيلة العدو ، ادركتك اشجار الغابة بجذورها الفتاكة التي تلتف على الناس كالافاعي .

ـ ولكن انا لن اموت وحدي .

ـ ان ناموس الحرب يفرض عـلى الملك ان يبادر بنفسه الى شق طريق الغابة ، وقلما نجا من هذه التجربة احد من سلفائك الذين تعاقبوا على الحـكم وقد مات منهم ثلاثة في سنة واحدة .

ـ يا ويلاه ! لقد فهمت كل شيء .

ذهبت الى مقر البرهميين فقلت لهم :

ـ ولكن انا رجل غريب ، لو كنت عالماً بحقيقة لامر لكنت رفضت هذا المنصب وما عرضت نفسي للتهلكه .

حدق بي كبير البراهمة والسم يتقاطر من وجهه وقال :

ـ يا ايها الرجل ، من يحل الباز على رأسه ويرفض زمام الحكم ، سيق الى الغابة ورمي على مشهد من الشعب بين جذور الاشجار .

وتداخلت بالحديث الملكة ميراخت فعيرتني وذكرتني بشجاعة سانائي قائلة :

ـ من العار الا يموت الملك شهيداً .

فسلمت امري الى الله عز وجل ، وتقدمت على رأس الجيش وحولي رجال الحرس يحملون المشاعل ، لان الليل كان قد اقبل فمشيت بخطوات ثابتة نحو الغابة الكثيفة فانشد القوم هذا النشيد :

قل للغابة الكريمة
ما هو قوت القلوب
ما هو قوت القلوب ؟
قلب الملوك
قلب الملوك
ورأس الديوك
هذي احسن وليمة

ثم دنا مني كبير البراهمة فهنأني على هذه الميتة الصالحة التي استعد لها وقال بكثير من الخبث :

— تقدم يا مليكنا المفدى ، اهدنا الى صراط الغابة آمنين سالمين ، آمين .

التفت الى الشعب فاذا بالرجال يقهقهون والنساء يهرولون ، ثم نظرت امامي فلاحظت ان بعض الجنود قد اختبأوا في ظلمات الغابة استعداداً للقضاء علي ليتمكن البرهميون من انهام اشجار الغابة .

فصحت :

— والآن ستعلمون كيف ساغدر بالغادرين واتغلب بارادتي على الاقدار .

وتناولت قوسي فرميت سهامي على الغابة فتقطعت بعض الجذور .

صاح كبير البراهمة .

— ان ناموس الدولة يمنع عنك استعمال الحيلة على هذا الشكل .

— وهل ادخل الى الغابة وانا اعزل ؟

— لا بل خذ سيفك وامش !

دخلت الى الغابة متظاهراً بمقاتلة الجذور ضاربا بسيفي يميناً وشمالا . الا انني كنت احذر غدر الجنود . وفجأة تبادرت الى ذهني حيلة موفقة فرفعت سيفي فوق رأسي وصحت :

— يا ايها الناس ، لقد اقترب اعداؤنا وهم يغدرون بهؤلاء الابطال

الكامنين في مخابىء الغابة ، يا لها من مذبحة أليمة الحقوني !

فاسرع جميع الجنود بدافع الدهشة والمروءة دون ان يستثبتوا من صحة كلامي ، فانتزعت مشعلاً من يد احد الحراس ، واضرمت النار في الغابة فانتشر اللهيب والتهم قسما كبيراً منها ومن فيها من الجنود بينها جسم كبير البراهمة وهو يحدق فيّ ويتبرم غيظاً والماً ويصيح اقتلوا هذا المخادع . فما كان من القوم الا انهم اخذوا يصوبون علي اقواسهم فلم اصب باذى .

اما انا فقد هربت وعدت الى البلاط من باب خفي ، كانت الملكة ميراخت دلتني عليه فاتصلت بها واخبرتها عن كل شيء فاندهشت لبراعة حيلتي وودعتني وداعاً مؤثراً بعد ان زودتني بالقوت والزاد والمال ، وارشدتني الى طريق آمنة تؤدي الى الشاطىء . وفيما انا هارب قبض علي بعض الهنود فادركت ان ساعتي قد دنت .

فصاح احدهم :

ـ هذا مليك السوء ، فاقتلوه .

واستعد لقتلي فنهاه عن عمله احد رفاقه فقال :

ـ انا اعرفه وهو من ابناء قومنا .

التفت الى المتكلم فاذا هو عبدالله الاقليمي احد رجال واثق الغماوي ، فعانقته عناقاً طويلا وفهمت منه انه كان قد لجأ ورفاقه الهاربين الى جهة ما وراء الغابة ، فحلوا ضيوفاً عند السماورة الذين احسنوا معاملتهم .

فلما عرفوا بقصتي تعجبوا كثيراً، وبعد ان زودونا المال والحلى والحجار الكريمة اعادونا الى المغرب على سفينة من سفن الحضارمة فوصلنا آمنين. فودعت رفاقي وعدت وحدي الى بيروت وتمت هذه الرحلة كالسابقة، فرحبت بي زوجتي، ولكنني لم اخبرها عن تفاصيل رحلتي.

الرحلة الثالثة

الغرام المفقود

بعد ردح من الزمن قضيته بين الاهل والاصدقاء، كنت فيه اذوق حياة هادئة بعيدة عن الهموم. شعرت بالضجر يتملكني كلما كنت اصطدم بفضول الناس، فهم يريدون استثماري شأن كل مواطن عائد من السفر. فكنت كلما انفقت عليهم لا اجازى الا بنكران الجميل. واخيراً آثرت ضياع اموالي على موائد الميسر، فبعد ان كنت مغامراً اصبحت مقامراً. وكنت كلما خسرت مالا، اشعر بثورة نفسية على ضعفي، لانني كنت اتذكر ما عانيته من المشقات، فضاق صدري يوماً وازداد شوقي الى الابعاد، ففاتحت اهلي بما يخالج نفسي من الخواطر فقالوا:

ـ الم تكتف بما خصك الله تعالى به من النعم؟

ـ لن اسافر هذه المرة لكسب المال بل لشفاء الغليل.

ـ الم تأخذ ايضاً نصيبك من المغامرات؟

وعند منتصف الليل فتحت باب الدهليز ودخلته، فتقدمت بداخله الى ان اقبلت على الشاطىء المعهود.

فاذا بعدد من الصيادين يهمون للذهاب الى عرض البحر في احدى جولاتهم الليلية، وقد اوقدوا مشاعلهم لاغراء الاسماك فقلت لهم:

ـ لا تتركوني وحدي على الشاطىء انني سأساعدكم بدون اجر .

وتركوني اصعد الى مركبهم الصغير ، فجلست في مؤخرته انظر الى حركاتهم واناجي النجوم . ثم طلع نو شديد زاد في سرعة المركب الذي كان يجرفه التيار ، فاختفت الارض فجأة فقال احد الصيادين :

ـ لقد ضللنا الطريق .

واخذ جميع من في المركب يكد عاملاً بالمجاذيف للعودة الى البر ، فكانت الامواج تقذفنا يميناً وشمالا فنعود الى مكاننا ، ثم دفعتنا موجة بقوة هائلة ، فتحطم المركب على صخرة ، فمات الجميع ما عداي وواحد من الصيادين .

صعدنا الى الشاطىء الغريب وظهرت امامنا بعض النساء كن يتكلمن لغة مجهولة ، ويرتدين نسيجاً من ورق الغار .

فاخذن يعملن لنا اشارات التودد والتشجيع ، فهرب رفيقي وكان قد اختلط عقله فضاعت آثاره .

دعتني احدى النساء لاتبعها فلحقت بها يائساً مضطربا ، فابعدتني عن رفيقاتها الماكثات على الشاطىء ينتظرن بهدوء نصيبهن مما ستلفظه الامواج .

فاقتربت مني الامرأة ونفخت في وجهي نفثات عطرية استعدت بها انفاسي كأنني استفقت من ذهول عميق ، فاخذت احدق بالامرأة اتأمل شعرها البني المائل الى الاحمرار الذي كان ينبعث منه بريق يحاكي لمعان النور ، واطرح عليها جملة اسئلة فلم تجب عنها ، بل ناولتني ثمرة غريبة شبيهة

بالحرمة ، ما ان ذقت طعمها حتى نبذتها ، ثم شعرت بنشاط كبير واخذت اتبين كلام رفيقتي فسألتها :

ـ ما هي هذه الثمرة ؟

قالت :

ـ الملابليس .

ثم همست همساً كأنها تريد مداعبتي :

ـ اسمي قمراء

وعزفت على عود هوائي اخذت الحانه الذهبية تتطاير وتتناثر، فتحيك خيوط الهواء ، جعلتني في حالة من الغيبوبة ،

فوصلنا الى كوخ صغير دخلناه فانطرحت على الارض ونمت نوماً عميقاً كانت تراودني فيه احلام كثيرة تدور جميعها على تطورات القمر واوصافه يزداد نوره ضياء كلما اقتربت مني امرأة شعرها مسترسل ، ثم تختفي فجأة ثم تظهر الطبيعة مقمرة ترد اشعة الشمس باشعة فضية ، فلما استفقت من نومي ، كانت قمراء واقفة امامي وكانت قد جهزت مائدة مليئة بثمار الملابليس لكنها مختلفة الاشكال والروائح ، فقالت :

ـ ان جميع هذه الثمار من اصل واحد ولكنها مختلفة الحجم والنكهة مع اختلاف الزمان الذي فيه تم قطفها . ومهما قدم عهدها مهما طابت ، يمكنك بفضلها ادراك سر الماضي والحاضر ... اما المستقبل فليس بمتناول الناس .

ترددت عن اكل الثمار وهي تراودني على اكلها ، وفي هذه الاثناء دخل علينا شيخ وقور طويل القامة ذو لحية بيضاء ، وصاح بنبرة وهو يلتفت الى قمراء ثم يشير الي :

- ويحك يا احمق . اياك واكل تلك الثمار فهي مسحورة ، من يكثر من اكلها يدركه الجنون ، ويتعرض للهلاك العاجل .

ضحكت قمراء قائلة :

- ايموت هذا الفتى من اكلها وقد استعاد نشاطه بمجرد انه ذاق طعمها ؟

فدهش الشيخ وقال :

- هل ذقت طعمها حقيقة ؟ يا لها من شريرة خائنة ! لقد جعلتك تتعلق بالجزيرة الى الابد ، وستصبح اسير حبها اللعين .

فغضبت قمراء وقالت :

- يالك من شيخ حسود . ألانك حرمتها اراك تذم تلك الثمار وانت اعلم من غيرك بمحاسنها ، والآن تصوم صيام المنبوذين .

ودار بينهما جدال شبيه بالمحاورة الغرامية ثم صاح الشيخ :

- اتبعني يا ابني وانظر الى شجرة الملابليس فمنظرها يبعث الرهبة في النفوس .

فشعرت بقوة سرية تدفعني نحوه ، بالرغم من صياح قمراء فلحقت بنا ، وقادني الشيخ الى مرتفع صغير فيه شجرة كثيفة اوراقها تبدو كقلب

الانسان، لون خشبها احمر كأن الدم يسيل في جذورها، ولها ازهار عريضة شائكة لونها صارخ. كلما حلت فيها حشرة او حط عليها طائر، اطبقت عليه اطرافها ومضغته حياً فتحمر وتنبعث منها رائحة ذكية.

ـ هذه شجرة الملابليس.

وكانت ثمار الشجرة قليلة معدودة لكنها جذابة خضراء مائلة الى الاصفرار. قطف الشيخ واحدة منها فسالت من الشجرة مادة بيضاء تشبه الحليب، وحلت ثمرة جديدة محلها.

فالتفت الى قمراء وعلامات التساؤل بادية على وجهي.

فهربت وبقيت مع الشيخ فقال:

ـ ليس في الجزيرة ما يؤكل سواها.

فنظرت الى الطيور العديدة واخذت ابتعد وتبعني الشيخ، وكلما حاولت خطف طائر او رميه بحجر، طارت جميع الطيور دفعة واحدة.

استدرجني الشيخ بضعة اميال على هذه الصورة، وما ان وصلنا الى محلة مهجورة، حتى اخذ شكله يتغير وقامته تستطيل، فبات عملاقاً فظيع الشكل، انقض علي ضربا، ثم رفسني ورماني على الارض، وهوى علي يريد امتصاص دمي. فاظلمت السماء في عيني وصحت:

ـ يا قمراء

وهنا شعرت بنسيم عليل كأنه نفحات ثغر عذب، واذا بانفاس قمراء تعيد الي انفاسي وما احتاجه من القوة، واذا بيدها الناعمة تدس في يدي

خنجراً ، فاتهمى عني العملاق وحاول الامساك بقمراء . فحالت دون غايته قامته الطويلة . وما هي الا لحظة حتى ضربته بالخنجر على شرايين رجله اليسرى ، فسقط على الارض وعاد فجأة الى صورته الاولى ، فانقلب شيخاً ضعيف البنية . اما عيناه فما زالتا تبعثان شرارة الحقد والغيظ فقال :

ـ قف عن ضربي قليلا ... كنت شابا مثلك . وقعت في غرامها فأصبحت الآن شيخاً كئيباً . لانها اخذت من حيويتي . وما برحت هي صبية ، مع ان عدد سنواتها لا يمكن احصاؤه

لم ابال بكلامه بل هجمت عليه وقتلته فقالت قمراء

ـ مسكين قتيل الحسد !

ثم دنت مني وفي ملامحها مزيج من العطف والاعجاب ، وعيناها تدمعان ، فاخذت تعانقني باوراق الشجر والنبات ، وعرضت علي ثمارها فاقشعر بدني ، وجعلت اركض في البراري فلم اجد فيها الا نباتات شكلها غريب ، تبعث رائحة كريهة ، فعدت الى الكوخ جائعاً . قالت قمراء :

ـ جميع نباتات الجزيرة مسمومة ما عدا شجرة الملابليس .

فسكتت وسكت طويلاً و أملت فيّ ثم قالت :

ـ عندي سر ابوح به اليك . حقاً ان هذه الثمار مسحورة ، تجعل آكلها ينعلق بالجزيرة تعلقاً جنونياً . فلا يفارقها ويقع في غرامي وهو غرام لا يمحي آثاره الا الموت .

فصحت :

- ويلاه ! لقد كان اذن هذا شيخ على صواب ... وانت ساحرة دجالة ... وهل يكون مصيري كمصير هذا الشيخ ؟

فاطعتني قائلة :

- كلا يا حبيبي . انه جاء الى تلك الجزيرة فكاد يموت جوعاً ، ثم اكل من تلك الثمار واكلت انا منها ، فوقع بغرامي ووقعت بغرامه ، وعندما ابتدأ يقبل على الهرم كغيره من بني الانسان ، كرهني وحاول الفتك بجمالي ، لانه كان يغيظه بقائي على ما انا عليه من الصبا والصحة ، لان الحورية من طبيعتها الا تتغير وهي تأكل من قوت الخلود . فتركته وشأنه شريداً في الجزيرة ، وانبت فيها اعشابا تؤمن تغذيته ، حقاً انه كان ينكر جميلي في كل شيء .

- ألم يكن في قلبك درهم من العطف ؟

- كيف لا ، وانا التي خلصتك من غدر هذا الشرير .

ثم زادت :

لولا خبث هذا الرجل ، لكنت حافظت عليه كهلا وشيخاً بعد ان احببته شابا . اما انت فسليم قلبك ، انت جميل الصورة والشيم ، وسأبحث لك عن جميع الحيل لحفظك على صورتك الحالية . والا لحقت بك الى الموت ، لانني تعبة من ذلك الخلود الذي ليس له من منتهى .

اخذ كلامها العذب يندس في صميم احشائي مع شعور خفي من الخوف الممزوج باللذة ، فاكلت من الثمار مرة ثم مرتين ، وامتلأ قلبي

سروراً وغراماً ، وضمت قمراء الى صدري ، فاكلت بدورها من الثمار وارتمت بين ذراعي ، وهي تضحك وتبكي من فرحها .

وعدنا الى الكوخ ، فعشنا حياة هنيئة ، بينما هينمة النسيم تبعث انغاماً وتموجات كأننا في رياض الخلود ، غير ان ما كانت عليه طبيعتي البشرية ، دعتني للشك والذعر وخشونة الكلام ، وعشيقتي الازلية تلين خاطري ، وتستعطفني برقة فائقة .

وكنت اطوف وحدي في جميع انحاء الجزيرة ، اتفحص عن مصير رفاقي من البحارة ، فلم اجد واحداً منهم ، ولم اتوفق بواحدة من النساء الماكثات على الشاطئ ، فاعود الى الكوخ حزيناً ، فاذا بقمراء تنتظرني بفارغ الصبر .

وهب يوماً هواء شديد عاصف ، فدنت مني قمراء مذعورة قلقة وخاطبتني :

ـ لقد دقت ساعة الفراق يا حبيبي ، وسأغيب عنك وتتخلص مني .

عانقتها عناقاً طويلاً ولم افهم لاول وهلة معنى كلامها .

ـ والى اين ترحلين ؟.. وكيف تغيبين عن الجزيرة وهي مقرك الدائم

ـ نخضع ايضاً نحن معشر الحوريات ، الى شرعة خاصة بنا ، فكلما تعلقنا بانسي تعلقاً صادقاً واخلصنا له ، تعرضنا لعاقبة الفراق ، او اصابنا ما اصابني من هذا الشيخ اللئيم الناكر الجميل ، فحرمت علينا لذة الغرام الصحيح ، وعاقبتي معك ستكون الهجر الطويل والذكريات التي لا تمحى ، يا لها

من عاقبة أليمة .

كنت معك كالعبدة المطيعة ، فغضب علي جماعة من السحرة ، وطلبوا من الاقدار ابعادي عنك ، فلا تنساني .

فلما انتهت من كلامها المؤثر ، استغرقت قمراء في نوم عميق ، وشعرت بدوري ، ان ثقلاً كبيراً يغمض جفوني ، فارتميت على الارض .

عندما استفقت في الصباح ، كانت قمراء قد توارت عن انظاري .

خرجت من الكوخ اطوف الجزيرة باحثاً عنها ، فعاد ذلك الهواء الشديد العاصف واخذ يقتلع الاشجار والنبات ، وينشر روائحها المسمومة في جميع الجهات ، واقتلع الكوخ الصغير وقذف باجزائه ، فلحقت بها حتى وصلت الى الشاطئ ، فاذا ببعضها قد حملت على سطح البحر ، فعندما هدأ الهواء ، اخذت اجمع اجزاء الكوخ وبقايا مراكب محطمة ، فصنعت منها زورقاً صغيراً دخلته ، بعد ان تزودت ثمار الملابليس ثمار شجرة الحب والحيوية التي لا تنقطع .

ونمت طويلاً في الزورق الذي اخذ التيار يدفعه بعيداً ، وفي اثناء نومي ، عاودتني ذكريات اقامتي في الجزيرة ، فلم تتركني حتى استفقت ، فاذا بشاطئ بيروت ماثل امامي ، وقد تغير منظره علي بعد حلم جميل ، لم يزل مطبوعاً في صميم الفؤاد ، علامة الشوق واليأس ،

الرحلة الرابعة

بلاد الاساطير

غدت من تلك الرحلة و في قلبي خفقان وشوق حفي . الا ان التضرع لم يكف لابعاد ما كنت اشعر به من ألم ونقص في كياني البشري.

اخذت الاحلام العذبة تجتذبني ، واختلطت في عقلي افكار واهداف متباينة تتجاذب وتتجاوب فتبرز في مخيلتي الاوهام .

كنت في كل مرة اعود من رحلتي متزوداً مجوهرات ودنانير . وها انا اعود وفي قلبي مرض وفي حياتي فراغ كبير .

ما اشد تأثير الحب في قلب الانسان ؟

ذلك الحب الازلي الذي تولد في على اثر التقائي بقمراء ، قد انقلب سويداء باتت سليقة متأصلة ، وكنت كلما امر بالمدينة انظر الى الفتيات نظرات قلقة ، لعلي ان اجد فيهن شبهاً بقمراء ، قمراء ذات الوجه الذي اعاد الي الامل وفطرة الشباب .

ـ قمراء ؟ قمراء !

كرهت زوجتي واولادي كأنهم غرباء يبعدون عني ذكر الحبيب .

كيف يكون لي طاقة على تحمل عبء الحياة ، وفي نفسي ذلك الفراغ الاليم ، وهذا القلق بمصير عشيقتي ،

ـ نعم ماذا حل بقمراء !

أهي في قيد الخلود تتمتع ببؤس لا يزول ، ام اصبحت في عداد ابناء البشر ذوي الحياة المرهونة بالموت ، فتخفى على الاصدقاء في الحالتين .

ماذا رماني بها ، وماذا دفعني عنها ، وقد وافق كياني كيانها ، كجزئي فاكهة الملابليس . ألم تكن هي قسمتي منذ اول الوجود ، أحورية كانت ام امرأة من لحم ودم ، في اي جيل من اجيال الوجود ، في اي قارة من قارات الارض ، وفي اي بقعة اتوفق برؤيتها ولو لحظة واحدة ؟

وضاقت نفسي من تخبط الافكار واضطرابها ،

ـ انت في ذمة الغيب يا قمراء والحاجز بيننا سر الوجود ،

صادفت فتاة بطريقي ، فخيل الي انها قمراء ، فتوارت عن انظاري دون ادنى التفاتة . ثم عدت الى نفسي فادركت مبلغ الخطأ ، اين ذلك الشعر البني المائل الى الاحمرار ، والعينان الشبيه نورهما بقوس القزح ، وتلك البشرة التي انبثقت نضارتها من امواج الاثير .

حنين الى قمراء ، فحنين الى السفر ، الا ان حب السفر لم يكن الدافع الحقيقي في هذه المرة .

اتخذت حيلة مرض الجسم ، وانا مريض النفس ، اتطلب معالجة اطول واساليب اكثر دقة ، فلم اتعب جهدى كثيراً لاقناع اهلي واصدقائي ، لان احداً منهم لم يحاول ردي عن انفاذ مشيئتي لكثرة ما شاهدوه في من فقدان التوازن ، وبسرعة لا مثيل لها دبرت اموري واتممت استعدادي ، فدخلت في الدهليز ووصلت الى المنفذ ، وظهر نور الشمس المحرقة على

مشهد من أدهش المشاهد ، فاذا بمركب شراعي محمل بابهى الازهار ، وباغصان النخيل وجميع وسائل الزينة ، وقد ركب فيه لفيف من الفتيان والفتيات المطوقة رؤوسهم باكاليل الغار ، يرتدون البسة حريرية ومعاطف ارجوانية ويعزفون على العود وينفخون في المزامير فتعجبوا كثيراً عند رؤيتي ، لكنهم تابعوا نشيدهم بشيء من الحذر ، فتشجعت وصعدت الى المركب . وجلست على مقربة من العازفين ، فاظهروا استياءهم مني ومن تطفلي عليهم ، فعادوا الى الشاطيء وتركوني وشأني في المركب ، فدخلوا الى مخيمات منصوبة في مرتفع صغير ، وتابعوا عزفهم . وما هي الا دقيقة حتى اقلع المركب فجأة ، وشق الامواج . فاحاط بي رهط من الاسماك ذات الوجوه البشرية ، واخذت تدفع بالمركب كأنها تلعب ، فتتقاذفه الايدي ، فلم اخش على نفسي لان حركة السير كانت طبيعية ولا تنذر بالخطر .

وصلت الى ارض جرداء مغمورة بالرمال كأنها الصحراء بعينها ، فاسرعت ونزلت الى الشاطئ هاربا من شياطين البحر .

شردت مسافة طويلة ابحث عن ماء اشربه ، او قوت اقتات به ، فلم اتمكن من التوفيق حتى بمنظر جديد ، الرمال تلي الرمال بلا حد ، حتى ضاق جفني عن احتمال النور الساطع بشدة يموه كل شيء ، وهممت بالعودة الى المركب وشياطينه لعلي ان اتخلص من تلك الارض اللعينة التي كتب لها الجدب والجفاف ، ولم اتقدم بعض الخطوات ، حتى اصطدمت بالمركب

شاخصاً امامي وشراعه منصوبة تخفق في الهواء، دنوت منه فابتعد تبعته في عمق البحر. لكنني لم اغرق لان المياه تحولت الى رمال.

عدت على اعقابي. فوصلت الى ساحل لم اكن لاشاهده عند نزولي الى الجزيرة. فيه من جميع الوان الخضرة. فاكلت منها وشربت من مياه عين صافية صفاء بين الديك. فاستعدت قواي. وتابعت سيري الى ان وقع نظري على تلة متوسطة، كان قد شيد على احد جوانبها درجات من الرخام الابيض فصعدتها. ولما وصلت الى القمة، بدا هيكل ذو اعمدة طويلة على مقربة من قصر منيع. جدرانه من البلور الابيض يمكن مشاهدة ما في داخله. تلعب الشمس عليه فيتكرر المنظر على الواجهات الاربع.

واذا بمدخل هذا القصر ينفتح امامي تحت صخرة من حجر الصوان، فدخلت الى ممر ضيق متعرج بين غرف عديدة متعاقبة ابوابها بشكل لولبي، جدرانها متشابكة كزوايا على محور. فجعلت اسير يميناً وشمالاً نزولا وصعوداً، دون ان اتمكن من ادراك اي هدف معين. فقدت حاسة المكان والزمان.

فبعد ان تهت بهذا الممر وغرفه العجيبة. حاولت التعلق بعلامة اقيس عليها الوقت والمسافة. فلم اجد سوى بعض الخوابي والجرار الفارغة مطروحة على الارض، وكنت اصطدم بها في نهاية كل جولة من جولاتي. ثم نهضت الى نافذة تطل على شبه منور فاذا بها تنفذ على سطح يؤدي الى الجدران البلورية.

فدفعني الفضول ، فتجرأت وتقدمت ، ويا له من مشهد مهيب !

ان جميع من في القصر ، اشباح يرتدون ازياء بيضاء كالاكفان ، وما ان اقتربت حتى تبينت كل شيء . كان في وسط قاعة كبيرة عرش ذهبي جلست عليه امرأة جميلة طويلة ، عيناها مطفئتان ، وكان يطوف حولها عشرات من الرجال في طواف متواصل لا ينتهي اجله ، يواظبون على الحركة الواحدة كعقارب الساعة ، لا يقفون ولا يستريحون ولا يتلفظون بكلمة ، بيدهم شموع يرفعونها ويصوبونها نحو الامرأة ذات العينين المفقأتين ، وهي جالسة مكانها كأنها ميت يندبونه بهمس .

راعني هذا المنظر الشاذ ، ولم افهم له معنى ، فسترت وجهي بكفي لا استطيع طاقته ، وهممت بالهرب فوجدتني فوراً على المدخل ، الا انه اعترضني رهط من ادهش الحيوانات والمسوخ ، استمزجت فيها جميع الاشكال المعروفة

كان ارتبهم انسان له رأس ذئب وجسم شيطان ، الا انه مكبل بالحديد ، اخذ يصيح غيظاً وغضباً ، فلحقني شيخ له جسم غزال ، وكان يضرب الارض بشدة مهدداً ، وفي نظراته الساذجة مركب من الخوف والوعيد ، ثم تركني وشأني وتوارى ، فلاحظت ان غيرها من الحيوانات الدابة والمسوخ والغيلان والوحوش المجنحة والعنقاء تطاردني ايضاً وتطوف بقربي كأنها آلات او اصنام متحركة . وكانت تنبت من تحت الارض افاع وطيور وحشرات من جميع الانواع ، لكنها لم تمسني بأذى . كل ما

يدركه العقل البشري من اشكال مبهمة ، وكل ما يمكن ان يتصوره الخيال المريض ، كان مجموعاً في تلك الجزيرة العجماء .

ثم توارت جميع هذه الحيوانات وعادت الى التلة ، الا واحداً هو ابو الهول . ان عذوبة وجهه الانساني كانت لتزيد من روعة حيوانيته ومن قوة بطشه . اخذت اغالطه في سيره ، اذهب يميناً ثم شمالا ، الى ان قصرت فتمكن من ادراكي بخطواته الطويلة ، فرماني تحت اقدامه يريد الفتك بي ، فصحت صيحة ألم وذعر :

ـ آه ! ما هذا المصير ، وهل اموت ضحية الخرافات والاساطير !

فما كان من ابي الهول الا انه انحنى على الارض فمات .

وسمعت صوتا خفياً يهمس :

ـ لقد قتلته بصوتك !

ـ ...

ـ هذا ابو الهول غذاؤه السكوت ، فما ادراك بسره ؟ انه عدو كل متكلم . تؤذيه الجمل والتعابير .

ففرحت فرحاً شديداً

انها قمراء شاخصة امامي ترشدني عند وقوعي في الملمات .

ـ يا قمراء ان صوتك اعاد الي الحياة وشفى جروحي ، وما هو سر هذه الارض ؟

ـ هذه بلاد الاساطير .

- ومن هي هذه الامرأة الجالسة على عرشها في القصر ؟ وما هي هذه الخيالات الطائفة بدون انقطاع ؟

— ان ملكة الجزيرة عمياء ، يخشى عليها ان تفقد صوابها . فاذا ادركها النوم في النهار ، هلك جميع الاهالي ، لانها اساس كل حركة فيهم ، بعد ان باتت جميع الاساطير منبوذة مهملة . فلذلك تراهم يطوفون بالشموع المشعلة لابقائها على يقظتها حتى هبوط الليل ، فجميع هؤلاء مرهونة حياتهم بيقظة هذه الضريرة يستمدون منها البقاء والخلود ، فاصبحت اجسامهم على كثرة الطواف هزيلة كالاشباح .

— ولماذا لحقت بي هذه الحيوانات والمسوخ ؟

— لان كل رجل حي يعكر صفاء الجو ويخل بنظام الجزيرة ، الا ان تطفله يقضي عليه ، لان الاساطير تدافع عن كيانها في آخر بؤرة لها على وجه الارض .

— والاخيلة والاوهام والاحلام لذهبية اليست آمنة وديعة كالفكر ؟

— اترك هذه الجزيرة ، فان الاخيلة لا يجدر بك ان تقتنصها ، والاساطير لا يجوز ان تجابهها وجهاً لوجه . لقد ماتت الاساطير ضحية الاجيال . وتأثيرها لم يزل مطبوعاً في النفوس . فاهرب اذن وتزود ما شاهدته من شذوذ ، فمناجاة الاخيلة تدعو الى التخبط والجنون وفقدان الحيوية .

– وانتِ يا قمراء . ألست بخيال ؟ انت ايضاً مرهونة بالحياة الوهمية . رافقيني الى عالم الاحياء الذين يعملون ثم يموتون فتطيب الارض بزاد اعمالهم –

وهنا انفتحت الارض فتصاعد دخان كثيف ، فاذا بتنين تلمع عيناه ، يحافظ على باب مغارة . فما ان وقع بصره علي حتى هدأ ووضع رأسه بين ذراعيه ونام . فدخلت قمراء الى المغارة وتوارت عن انظاري . واختفى كل اثر للمشهد فلم ار الا رمالا .

واستمطرت السماء جواهر كثيرة من اللازورد والياقوت والماس . ابت نفسي الا ان تمتد يدي اليها ثم لما لمستها اصبحت شيئاً من لا شيء .

– اهكذا تكون الرموز يا قمراء ؟

ولما عدت الى الشاطئ ، كان المركب في مكانه تتقاذفه الامواج فادخلت فيه نماذج من حجار ورمال الجزيرة الخداعة فيسكن كلما رميت شيئاً منها في البحر . وصلت الى ميناء جديد من موانئ اساطير الاقدمين صخورها ساحرة ومياهها مبهجة . فانذرت اهاليها بزوال سيطرتهم في عصرنا هذا ، ونظمت قصائد ومقاطع زجلية لتخليد اسم قمراء ، وحفظ تفاصيل رحلاتي السابقة ، فاستحسنها الناس وبالغوا بتكريمي . وظهر فجأة موكب من مواكب الشمس ينبىء بنهاية رحلتي

فلما وصلت الى موطني بيروت، كان قد فرغ زادي من الرمال والاحجار و الاخيلة . فدخلت الى الواقع المنظور ، الا ان فراغاً في قلبي كان ينبئني بثقل الدنيا علي بما خصني به القدر من حظ في حياكة خيوط الاثير ، وكآبة كامنة لا تمحوها مظاهر الثراء واسباب النعمة .

الرحلة الخامسة

جزيرة الاحلام

ان جو الاحلام يولد حركة دائمة في الانسان ، منه طرافة المسلك ، والغرابة والشذوذ .

لا ادري ماذا حل بي فاختلط عقلي قليلاً ، وبت مائلاً الى المرح اضحك بدون سبب . واتعلق بالنادر من الامور . اتردد الى المقاهي والحانات ، عالماً باصول الخمرة ومستلزماتها ، فاستأجر اجواق المطربين لترطيب مزاجي ، فاعاقر الخمرة فتسمع لي قهقهة طويلة متواصلة ، ويرد علي اصدقائي الجدد كالسكارى والحشاشين ، ونقرع الكأس بالكأس ، فكنت مغرقاً بجو من السرور المصطنع يشابه البكاء ، ثم اعود الى افكاري وذكرياتي ، وكلما حاولت النسيان عاودتني صور الماضي القريب .

كنت يوماً بضيافة رجل من اهالي المحلة وامام المائدة المليئة بالطيبات ، لم اتردد عن رفع كأسي لاشرب نخبه ، فقلت :

ـ اشرب كأس ...

وعندما حاولت ذكر اسمه ، خانتني ذاكرتي فجأة ، فانفجر كلامي كالصاعقة وصحت :

ـ نعم اشرب كأس قمراء ؟

يا لها من كبوة مهينة دهش لها الحاضرون ، فسألوني بين المزح والجد :

- من هي يا ترى قمراء هذه التي تذكرها . اهي معشوقة تسيطر على عقلك بحيث لا تتمكن من ضبط كلامك ؟ فتسيء الى صاحب الدار بدلا من تكريمه ؟

ضحك البعض وحافظ الباقون على الصمت اللاذع . اما صاحب الدار فقد اصفر وجهه واحمرت عينه فأخذ يعبس بوجهي

كيف اخرج من هذا المأزق ؟

وهنا قلت بشيء من اللياقة السطحية لم اكن اعهدها بي من قبل :

- ليست قمراء بشخص معين . بل هي لقب يدل على المناسبة الحلوة التي جمعتنا في هذه الليلة المقمرة ، بفضل صاحب هذه الدعوة . فلأنها جمعت صفوف الاحباب فضلت قمراء هذه على الف ليلة يسيطر عليها ظلام النفوس .

وهنا تنفس اصدقائي الصعداء لان الازمة كانت قد انفرجت . الا انهم ظلوا على سابق اعتقادهم بانني فقدت صوابي .

وذاع صيتي في البلد .

- انه مجنون ليلى ... مجنون معشوقته قمراء .

وصل الخبر الى اهلي وابناء اسرتي فعاتبوني على اعمالي . وبدوري شكوت ثرثرة الناس .

دخلت ذات ليلة غرفتي وانا ثمل فقرأت في جريدة : ان سفينة محملة بضائع قد غرقت في عرض البحر ، فقلت بقرارة نفسي :

ـ وانا ايضاً غريق ... انا الغريق الذي عناه الشاعر ولا اخشى من البلل.

لفظ البحر اجزاء السفينة على الشاطئ، فذهبت مع الكثيرين لمشاهدة هذا المنظر، فتأملت فيه واحترت بامره، فتساءلت هل بامكاني رؤية تلك البقايا اذا عدت للشاطئ من منفذ المغارة، فاسرعت الى الدهليز وبعد ان قطعت المسافة المعهودة تحت الارض نفذت الى الشاطئ. فاذا بالسفينة الغريقة قد استعادت كيانها ماثلة امامي مكتملة الاجزاء ناصعة البياض، ترفرف قلاعها المزدانة بالبارق تحت نور الشمس. يرتدي بحارتها ثيابا انيقة بيضاء. فتعجبت كثيراً.

واخذ احد البحارة يتبين ملامحي فصاح بشيء من الدهشة:

ـ هذا انت يا سنداس اصعد الى السفينة عاجلاً لا تتأخر. كلهم بانتظارك لقد طال غيابك عن جزيرتنا.

لم افهم معنى هذا الكلام. ولكن دافعاً سريا دفعني الى الصعود الى السفينة، فنادى رفيقي ربان السفينة، واشار الي بالبنان. فاقترب الرئيس مذهولا وقال:

ـ تأكد من صحة معلوماتك يا سهيل هل صادفته قبل هذه المرة؟

ـ نعم يا سيدي الرئيس. هذا هو الرجل الذي تبحثون عنه

والتفت الي وسألني:

ـ الست انت سنداس؟

فأجبته :

ـ ومن يكون سنداس ؟

فأجاب البحري :

ـ هو انت ، أتتنكر نفسك ؟

وصاح بعض الركاب :

ـ سنداس ، نعم هذا سنداس المطرب .

واستطرد سهيل قائلاً :

ـ والآن اذكره تماماً ، ان اخي هو حارس في بلاط الملك ، فزرته يوم عيد الاميرة زريقة » وكان سنداس هذا يعزف على العود في الحديقة الكبيرة .

وفهمت من حديث الناس ان الاميرة زريقة بنت الملك ، وقعت بحب سنداس وان هـذا المطرب القى بنفسه في البحر ، ومات غريقاً . فحزنت الاميرة حزنا شديداً على موته ، واصابها مرض عضال عجزت عن معالجته الاطباء ، الى ان حضر كبير السحرة الى البلاط وقال للملك :

ـ لم يزل سنداس بقيد الحياة ، لان بعض الصيادين خلصوه من الامواج وتركوه على شاطئ ميناء غريب ، فلن يتم شفاء الاميرة الا بعودته

وكان ان اوفد الملك هذه البعثة للعثور على سنداس .

امسكت بالربان وقلت له :

ـ تحقق ان سنداس هذا بات في عالم الاموات لانني لست اياه .

وهنا غضب الربان وقال :

ما هذا المجون يا مطرب الملوك ، أنا بحري بسيط ، ولكن لن اقبل عن كرامتي بديلًا ، أتهزأ بي والاميرة مريضة بسببك ؟

فسكت وقلت بنفسي :

- عسى ان تظهر الحقيقة عند وصولنا الى البر .

وعندها اكرمني جميع من في السفينة ، فوضعوني باحسن مكان وخصصوني باشهى طعام ، فلما وصلنا الى جزيرتهم بعد ان قطعنا الغديرين ودخلنا الى بحر الظلمات ، راعني منظرها لأن البحر كان قد غمر اطرافها فغرقت وخسفت تحت الامواج ، ولم يبرز منها سوى قمة هائلة كفوهة البركان غنية بالاسوار والخنادق كبيروت القديمة ، يوجد على واجهتها العديدة درجات للنزول الى مشاهد العمران الغارقة تحت سطح البحر .

فزادت هذه الاوضاع الطبيعية من مهارة اهل الجزيرة ، فمدوا من الاعماق الى الاعالي قصوراً وقلاعاً شاهقة وابراجاً مكللة بفنارات ساطعة النور ، تمكن بفضلها اهالي الجزيرة من السيطرة على منطقة بعيدة ، فيفرضون على السفن المارة بها الغرامات الجسيمة ، ويتعاطون الصيد والقرصنة واستخراج الملح .

كانت الجزيرة محاطة بحواجز حصينة وشبه مرتفعات صخرية تنفذ الى ميناء مدخله ضيق .

وكان يتوسط العمارة هيكل شاهق ذو اعمدة تنطح السماء كأنها تريد

مساندتها ، يتصاعد منه دخان ينبىء عن انون من نار موقدة دائمة .

وما ان اقبلت على البر ونزلت الدرجات، حتى تحققت من شبهي الغريب بالمطرب سداس لأن الشعب هتف لي هتافاً طويلاً ، واخذت النسوة ينثرن الازهار تحت اقدامي ، الحق انه شعب عجيب يشابه حيوانات البحر بعيونه الممصة من كثرة نظره الى الآفاق البعيدة . وجلده المدبغ لكثرة استنشاقه الهواء المالح .

كان الملك بانتظاري على ابواب القصر ، وبرفقتـه الاميرة زريقة لأن مجرد قدومي كان كافياً لارجاعها الى تمام الصحة

دخلنا القاعة الكبيرة وهي كناية عن مغارة واسعة ذات اعمدة مصنوعة من الصوان ومكللة بعقود من المرجان ، وقد هالني منظر التماثيل العظيمة التي تمثل الاسماك الضخمة والفيلة وحبابرة الازمنة الغابرة .

ان في جوانب المغارة اقفاصاً فيهـا من جميع انواع طيور البحر وخيولها وثيرانها ، واحواضاً من صخر وزجاج عرض فيها من مختلف انواع الاسماك التي يمكن صيدها في المنطقة .

وقد اشعلت مشاعل مزكزة على اعمدة طويلة اخذت نيرانها تلعب كالاشباح فتغالب ظلمات المغارة .

اجلسني الملك بقربه . وجلست الاميرة زريقة على يمينه ، واحاط بنـا الوزير راتب وابنته ثريا ، وكبار القوم.

قال لي الملك :

ـ نحن بغاية الشوق. اهلاً وسهلاً بقدومك في الجزيرة، لقد طال غياب الطرب عندنا، اعزف على العود واطربنا يا مطرب.

ففرحت الاميرة زريقة والتفتت الى الحضور. فاذا بهم ينتظرون العزف وعلى وجوههم علامات الامل والسرور.

ناولني احد رجال الحاشية عوداً، فاخذت اعزف بعض المقاطع التي كنت حفظتها في اثناء ليالي الساهرة، ثم انشدتها فاعجب بها الحضور واظهروا استحسانهم، وكادت الاميرة ترقص لشدة انفعالها.

الا انني كنت استهجن صوتها الخشن وحركاتها الجنونية التي لا توافق مزاجي، فكنت كلما ظهر منها علامة استحسان، انفر منها. وعندما انتهيت من عزفي وانشادي، قال الملك:

ـ ما هذا يا سنداس، لقد ازداد عزفك تفنناً وشعوراً، من اين لك هذا التحصيل؟

وبدت منه ضحكة صفراء وشيء من الوعيد يعاكس كلامه المعسول، فخشيت شراً خفياً، وحدثتني نفسي بأن ابوح بالحقيقة فقلت:

ـ يا ملك الزمان، لست انا بسنداس انما شبه غريب بيننا قد حمل رجال البعثة على الاعتقاد بانني هو، لكنني غريب عن هذه الجزيرة.

ورويت له قصتي من اولها الى آخرها. فاحتج علي الربان وغضب الملك، ثم كتم حقده ورفع الجلسة وانصرف الجمهور. وذهبت الاميرة. فلم يبق سوى الملك ورجال الحاشية. فحدّق بي الملك وقال:

ـ لولا رأي كبير السحرة ، لكنت امرت بقطع رأسك يا لعين ، قل كيف نجوت من البحار ؟

ثم امر بجلدي عشر جلدات .

ومنذ ذلك النهار المشؤوم ، اخذ الملك يدعوني في كل يوم الى العزف على العود امام الناس ثم يأمر بجلدي خارج حضورهم ، لعله يتوفق بارهاق قواي والقضاء علي تدريجياً ، حتى يتهيأ للاميرة ان موتي كان طبيعياً ، وهددني بالقتل اذا شكوت امري لأحد .

فادركت حينئذ سر عداوة الملك الذي كان قد امر باهلاك سنداس غرقاً ، وقد بوغت بخبر نجاته ، فأمر باعادته الى الجزيرة لتأمين شفاء الاميرة ، فلما استعادت صحتها عاودته فكرة الانتقام .

وصل خبر تلك المعاملة السيئة الى ثريا بنت الوزير راتب وهي فتاة على غاية من الجمال ورقة الشعور ، فاشفقت علي وقالت لوالدها :

ـ ان هذا الرجل مظلوم فهو ليس بسنداس انما كان ضحية شبهه الكبير بالمطرب الغريق . وليس من العدل ان يعاقب لذنب سواه .

ثم ارسلت بعض رجال حاشية والدها ، فخطفوني ليلاً ، بينما كنت اعود الى بيتي تحت مراقبة رجال الحرس ، ونقلوني الى بيت بعيد يخص احد اقارب الوزير .

كانت ثريا تأتيني كل صباح تضمد جروحي وتعتني بي اعتناء دقيقاً .

جاءت يوماً فقالت لي ان بامكانها مساعدتي على الهرب من الجزيرة ،

فشكرتها على جميلها ، وطلبت مني ان اعزف امامها على العود . فامتثلت ، وما ان بدأت بالعزف حتى دمعت عينها وقالت :

ـ مسكين انت ، لا تستحق الضرب الا بالانغام .

فلما شاع بالجزيرة خبر اختفائي ، اشتد مرض الاميرة زريقة . فوعد الملك بجائزة قدرها الف دينار ، لكل من يعثر على المطرب سنداس ويأتي به حياً .

فلما فاتحتني ثريا بهذا الموضوع ، شعرت بخوف شديد ورجوتها بأن تقوم بوعدها ، فتسرع بمساعدتي على الرحيل . فقالت :

ـ اذا افشى احد سر وجودك في هذا المكان ، ضحيت بنفسي في سبيلك .

وهنا تحقق لي انني انتقلت من ورطة الى ورطة ، لأن ثريا ابتدأت تتعلق بي وتنفر مني كلما فاتحتها بامر الهرب ، الى انها حضرت يوماً فقالت لي :

ـ ماتت الاميرة زريقة فجن والدها . ودعا كبار القوم والدي لادارة شؤون المملكة لحين شفاء الملك ، والآن يمكننا ان نعقد زواجنا .

فقلت لها :

ـ كيف نعرض حياتنا وحياة والدك لخطر محقق ، اذا شفى الملك من جنونه ، فيقضي علينا نحن الثلاثة .

فلما نقلت ثريا هذا الكلام الى والدها ، وافق عليه لانه كان يخشى

غضب الملك .

ولكن ثريا حقدت علي ، فكانت تأمر رجالها بضربي احياناً ، وتستعطفني احيانا وليس من يسمع شكواي من هذه المعاملة .

واتفق ان سهيلاً وهو البحري الذي كان سبب وجودي في هذه الجزيرة ، قد تأكد من خطأه وندم على ما بدا منه . وقد فهم الكثير من سيرتي واحوالي في بيت ثريا ، فاتفق مع بعض رجالها وقادوني الى الميناء ، وسلموني الى ربان مركب صغير ، وبعد ان وهبني سهيل كيساً يحتوي مئة دينار ، تعويضاً لي ، ودعت الجزيرة وما عانيته فيها من مشقات فابحر المركب ، وتبعتنا قافلة كبيرة من السفن كانت ثريا ارسلتها في طلبي ، الا انه هب اعصار شديد فتشتت ، وتمكن ربان المركب من الابتعاد ، واخيراً وصلنا الى شاطىء بيروت . وعندها ودعت رفاقي ، فعادوا الى بلادهم ودخلت المغارة وانا اقول :

- من جزيرة الاعماق صعدت . ومن الاغوار تخلصت ، فخلاصي عجب عجاب .

الرحلة السادسة

بلاد القدر

ان نجاتي من الاهوال جعلتني اتريث في جميع الامور ، فأخذت في تمحيص الحقائق استشير الحكماء والعلماء والمنجمين مطالعاً كتب السحر. ولكن بدون ان اتوفق الى حل رموز تلك الرحلات العجيبة التي احدثت في حياتي ذلك الانقلاب الكلي ، فاذعنت للأمر الواقع اتردد الى مقهى البحرين الواقع على شاطىء بيروت بمحلة مجاورة لمقبرة السنطية وهو مقهى مبني على اعمدة واوتاد مغروزة فى الماء.

فبينما كنت جالساً فيه يوماً ، اتأمل الامواج المتلاطمة ، سمعت هذه العبارة تفوه بها احد الحاضرين :

- ثورة الانسان على مصيره كثورة هذه الامواج المتصاعدة، تكبر ثم تهمد ،

فالتفت الى صاحب الحديث فاذا به رجل مسن ، قيل لي انه موظف قديم خدم تحت ظل الحكم العثماني ، له خبرة واسعة بشؤون الدنيا والدين ، فتعرفت اليه وطلبت مجالسته فنلت صداقته معتبراً ساعات الاجتماع به ، من ساعات العمر .

كنت كلما اقبلت في الصباح اجد بهجت افندي جالساً يتصفح الجرائد ، ثم يتحدث الى احد زبن المقهى ، فاذا لمحني بانت على وجهه

ابتسامة حلوة ، فاجلس بقربه نتباحث بأهم المعضلات فيتحفني باخبار الماضي البعيد وبذكرياته عن تقاليد الباب العالي .

ومن رواياته المؤثرة . قصة رجل قضى في السجن اعز سني حياته ، فلما انتهى العهد الحميدي اطلق سراحه فمات لساعته . لأنه كان قد آلف سوء المعاملة .

واستطرد بهجت افندي قائلاً :

ـ ان خلاصه من المحن كان كافياً للقضاء عليه ، فليس لأحد ان يعرف ما يصلح له او يضره .

فاجبته على الفور :

ـ من اصيب بمصير شاذ كمن تعود الشذوذ في تفكيره ومسلكه ، فيرى نفسه غريباً في بلدته .

ـ نعم يا شريف ، ان هذا الرجل يتمسك بمصيره لأنه مرهون بما تفرضه عليه الطبيعة ، وبما تكيفه له التجارب ولاقدار ، ومن كان مصيره حركة دائمة لا يهدأ له بال في سكون المدينة .

سكون المدينة ! وهل يحلو لي سكون المدينة ! انطبق كلام بهجت افندي على ما كان يخالج نفسي من خواطر ، فعدت الى بيتي مسرعاً ثم تغلغلت في الدهليز المعهود ، ولما نفذت على الشاطىء لم اشاهد فيه احداً . وكانت الرمال مكوّمة كالرماد بعد حلول كارثة ،

سمعت انيناً في عرض البحر كصوت غريق يستغيث ، فاذا بزورق

صغير يرقص على الامواج ، لكنه خال من المخلوقات . وما ان تسلقته حتى اقلع بي مسرعاً ، فظهرت منارة بيروت ومحلتها برمالها وصخورها ومرتفعاتها ، كما تبدو اليوم وهي اول مرة اشاهدها برحلة من رحلاتي ، وبالرغم من ان نظري كان قد ألفها ، بانت كمشهد جديد ، وعند مروري على مقربة من الصخرة الطويلة المعروفة بالروشة تجاه مغارة البوم ، تهيأ لي انها جمل يحمل حملاً من الاعشاب والحشائش ، واستهجنت كذلك المسافة الفاصلة ما بين شوران والاوزاعي ، فقد اختفى كل اثر للأرض فجأة ، ووجدتني بين السماء والماء ، ثم هدأ الهواء العاصف وبطىء سير الزورق ، فاجتذبه تيار قوي واستسلمت الى النوم .

ولما استفقت كان البحر حولي اسود كالليل ، فيه وفرة من الجزر الصخرية اعتبرتها لأول وهلة وليدة تفكيري المضطرب ومخيلتي المريضة ، شكلها كحيوانات محجرة جامدة في مكانها ، كانها قطع من روشة بيروت قد اندثرت على سطح البحر . ثم نميت وكبرت بعد ان احتفظت بهيكلها الرهيب وحشائشها البرية ، وعددها خمسون جزيرة منها ما يشابه الحوت وبعضها يشابه الفيل . واخرى كرؤوس الثيران ، ومنها كالضبع والذئب والكلب والتمساح والضفادع والسلاحف .

وكان بعضها كالبيوت المهدمة الخالية من الارواح ، وبقربها اعمدة وقناطر محطمة وهيا كل منحنية غارقة رؤوسها في البحر ، واسواق واسوار غائرة ، فتأثرت لهذا المشهد المنبىء بالدمار .

وكانت تمر بين الصخور مخلوقات غريبة تصعد من غور البحر شبيهة بالحيوانات الساحلية ، لكنها مجنحة كالاسماك والكلاب البحرية .

واذا بي امر في وسط الجزيرة بين ضفتي شاطىء صخري ، في شبه قناة تجر المياه من البحر جراً . كأنها منفذ هواء ، كانت على ضفتي القناة ازهار ضخمة الحجم ، كأوراق الصبار فيها شوك ووبر .

ثم دفع التيار بالزورق الى خارج الصخور ، فبانت ارض ساحلية جرداء تعتليها قلعة مرتفعة على جوانبها ستة ابراج صخرية مليئة بالاشكال الراعبة .

فصعدت الى الشاطىء ، وفيما انا اتقدم ، سمعت هدير نهر في بطن الارض ، لكنه غير منظور ، تفقدت مصبه فاذا به يمتد على مسافة طويلة ، الى ان تختفي آثاره تماماً

وصلت الى منحدر ينتهي الى تلة مستديرة فيها مجموعة من الاشجار المتحركة تتجه اتجاهات مختلفة ، فتعلو وتنحني وتدور يميناً وشمالا .

عدت على اعقابي مذعوراً ، فوصلت الى القلعة ولفت نظري بابها الكبير وعليه آثار للدخان الاسود . كانت تتسرب من تحته النيران الملتهبة بينما كانت تصعد ضجة الحديد يقرع بعضه بعضاً .

تأهبت لطرق هذا الباب . لعلي ان اتوفق بايجاد من يرشدني ويهدني سواء السبيل .

فاستوقفتني يد عرفت صاحبتها قبل ان ألمح وجهها . واذا بقمراء ماثلة

مامي تبعدني عن هذا الباب قائلة: كيف تأتي الى ههنا وانت ما تزال على قيد الحياة؟ ألا ترى الى اين يؤدي هذا الباب؟

واشارت بيدها الى جسر بعيد ملاصق بالسور الخلفي المحيط بالقلعة فقالت:

- هناك دنيا الغيب وسلطة اليوم الآخر.

نظرت الى الجسر فراعني منظره، وتعجبت لألوانه البراقة كأنها قوس القزح.

قبضت على يد قمراء قبضة قوية، وتبعتها، وفيما نحن نبتعد سألتها:

- هل انت ايضاً في عداد الاحياء؟ أراك تركت جزيرتك لتسكني في هذه البلاد التي لم اشاهد فيها اثراً للحياة!

- هذه هي منطقة لحرام ما بين الحياة والموت. اما انا وا أسفاه لم ازل في قيد حياتي المملة الخالدة اسيرة ذكرياتي. فلما علمت بقدومك، جئت مسرعة لانقاذك من حيلة الزمان عليك.

ثم اخذت ترتجف قائلة:

- يا له من مشهد رهيب! قوافل الاحياء يقتادون الى مثواهم الاخير، فينقلبون ارواحاً حائرة تستعد لمواجهة ربها.

التفت يميناً وشمالاً فلم ار احداً، وتبينت زجاجات من البلور تحتوي على قليل من النور الشاحب، فأشارت قمراء الى الجسر البراق، وقد بات كالشمس الغاربة وعليه ظلال ضئيلة، وتعجبت كيف اني ابقى على حالتي

الاولى فسألتها :

ـ وهل انا ايضاً استعد للموت في هذا المكان ؟

ـ كلا !

ـ وكيف يكون الموت ؟

ـ مزيج من الحركة والراحة واليقظة الكلية ،

ـ هذا شأننا نحن الاحياء ، فما يميزنا اذن عن الاموات ؟

ـ نور الشمس وفصول القمر . وفضول الناس علينا .

ثم قالت :

ـ عليك الآن مغادرة هذا المكان قبل ان يدركك عزرائيل ويسوقك الى قضاة يوم الحشر ... اراك ساهماً حائراً ، ما داؤك ؟

فأجبت :

ـ انني حائر بامر هذه الاشجار . ان فيها ما يستوجب الايضاح .

فأجابت :

ـ ألا ترى اننا نتقدم على الطريق المؤدية اليها .

وفعلاً كنا على مقربة من مجرى النهر . غير ان الحديث كان يلهيني عن سماع هديره . وصلنا الى المنحدر وبانت التلة المستديرة ، فقالت قمراء :

ـ انظر الى تلة القدر ! اقترب منها لا تخف وابحث عن مصيرك .

فاقتربت من الاشجار ، فاذا بها قليلة ، الا انني عجزت عن عدها واحصائها .

فقالت قمراء وهي تشير الى شجرة مائلة امامي كالخادم المطيع :

ـ ألا ترى شجرتك ؟

اخذت ادور حولها اتفحص وأعد اوراقها ضاربا اخماسي باسداسي . على قول العامة عندنا ، فكانت تحضرني جميع القواعد الحسابية ، ثم تغيب عني فجأة فتنعكس النتائج والحلول ، وتتعقد المسائل والخطوط والخواص ، واخطأت بعملياتي بدون انقطاع فصرخت :

ـ ما هذا يا قمراء ؟...

ابتسمت ابتسامة يائسة ، فلاحظت ان هذه الاوراق كانت تتحول من الاخضرار الى الاحمرار ، الى الاصفرار ، لا يستقر لونها على حال . ناهيك بشكلها وحركاتها .

وهنا قادتني قمراء الى خارج هذه الدائرة المسحورة .

قالت :

ـ لقد شاهدت مصيرك بأم عينك ، هل فهمت عنه شيئاً . هي سنة الانسان ان يكون ابداً في حيرة وريبة من امره ، انني اراك لا تعلم ما اصابك من قسمة الحياة ! أمغلوب انت على امرك ام مسيطر على التقادير ، فالحياة مساومة لا ينتهي معها الاخذ والرد ، الا بالختام وهو الموت .

والآن لنفترق . لأن وقتي محدود هنا .

ـ رحماك ، اين اذهب انا والى اين تعودين انت يا قمراء دائمة خالدة

جسما وروحاً ، ومن تكونين يا ترى ، ومن اين اتيتيني زائرة وعشيقة لتعذبيني ، وما هو سر التقائنا على هذا الشكل ؟ فالحياة بدونك خالية من معنى ، وانت عالمة بما انا عليه من بؤس وفاقه .

وامسكت بثوبها اريد تقبيلها . فابتعدت وهي تبكي وقالت :

ـ ألم ادخل في حياتك الأمل والخيال والرسالة ... ستراني في احلامك مراراً ، اما منظري فمحجوب عنك نهائياً ، لأن اسراعي لانقاذك من هذا المكان ، كان محسوبا علينا ، فاضعت خر فرصة تركتها لنا التقادير . وها قد انتهى اجل الميعاد فعد سالماً الى بلادك .

ورفعت بوجهها الى السماء ، وتوارى معها منظر منطقة الحرام .

لقد تركتني على الشاطىء وحيداً اعزل رهين الذهول واليأس ، فصرخت صرخة ألم وبكيت على نفسي ، متبعاً الطريق المؤدية الى عالم الاحياء . فتسلقت الزورق وانتهى الرحيل الى حيث كان ينتهي في كل مرة .

الرحلة السابعة

الخلود

شعرت بانحطاط في جسمي ، وبقنوط في عيشي . لأن خاتمة اختباراتي تكللت بالخيبة واليأس ، فكنت اتأوه وانتحب ثم اعود فاطارد ذكرياتي الأليمة ، واعالج نفسي العليلة ، باعمال البر والاحسان .

فسمع باخباري اهل المحلة ولم يصدقوا ما بدا علي من تغيير نفساني، غير انهم لم يظفروا مني بأي جواب .

دخل علي يوماً احد الدراويش الغرباء عن بلادنا ، شديد الشبه بكبير البراهمة المسيطر على جزيرة المعاكسات . فاستقبلته واجلسته الى قربي ، فاخذ يردد علي الاسئلة :

ـ أراك قد طفت بلدانا كثيرة واختلطت بشعوب الارض كافة ، وشاهدت من الامور ما كان علينا خفيا .

حرت بمعنى هذه الكلمات التي لم تكن لتخطر على بال احد من الناس سواه .

ثم زاد الدرويش :

ـ وهل خالطت الارواح ؟

فقاطعته :

ـ ما هذا الفضول علي ؟

فاجاب على الفور :

ـ ألم تكن رحلاتك ستاً ؟ لماذا لا تجعلها سبعاً ؟

— ولماذا يا ايها الرجل ؟

— لماذا ؟ ولماذا لا تتم السلسلة الكاملة لرحلاتك . وهل تريد ان يكون مصيرك شاذاً حتى تحذف الرحلة السابعة من سجل الزمان ؟

انصرف الدرويش هازئاً ، وهو يحدق بي بعينيه اللامعتين ، فأثر علي كلامه وقلت في قرارة نفسي :

— عسى الاّ يكون طرأ شيء على الدهليز .

تفقدته فاذا بالبلاطة ثابتة بمكانها . رفعتها شبه مكره وتغلغلت في الدهليز الى ان وصلت الشاطىء فوجدت غلاماً على غاية من الجمال . كان يهم ليصعد مصطبة خشبية منبسطة على سطح البحر فصحت به :

— هل اصابك بله ، كيف يمكن ان تقودك هذه الخشبة الى عرض البحار ؟

فنظر الي نظرة طويلة رصينة واجابني :

— وكيف تقدم انت على الاتصال بعالم الغيب مدفوعاً بقوة ايمانك بما هو خفي غير منظور .

وتوارى الغلام وبقيت المصطبة في مكانها . فوضعت رجلي عليها لاعادتها الى الشاطىء ، وما ان وطأتها حتى ذهبت على الامواج بسرعة ، هادئة كالمركب الشراعي عندما يكون الهواء طفيفاً .

لاحظت ان المصطبة تمضي نحو الشمال حيناً ونحو الجنوب حيناً . غير ان المشهد كان يتغير شيئاً فشيئاً ، كأنني انتقل من مرحلة الى مرحلة من تطور الحياة .

وجعلت تلك الحركة الخفية تستقر هادئة تشابه وقفة التفكير العميق عندما يتناول موضوعاً من مواضيع الخلود .

وهو احساس كتأثير البنوج لم اتمكن معه من ابداء اية مقاومة .

غابت الشمس . وسيطر الظلام ، وأغمضت عيني ، وسلمت امري الى الله تعالى .

ولما استفقت كانت المصطبة منجذبة الى داخل مضيق صخري مسقوف بصخور جبلية ، بشكل جسر طبيعي مستطيل ، يجر مياه البحر جراً كأنه منفذ هواء .

واذا بفجوة كبيرة في اعماق البحر ، تبدو كبئر مستديرة تدور على محور واحد .

فسقطت المصطبة في الفجوة تدور على مستوى واحد ، فاستقرت بشكل استوائي . وكلما دارت دورتها دخلت الى محل اعمق .

ثم انقطع عن ناظري ما حولي من مشاهد ، وانفتحت فوهة في البحر واتسع الغور كأنه بئر عميقة .

خرجت المصطبة بين الصخور ، واندفعت في نهر عريض ، ومع ان الظلام كان لم يزل مسيطراً علي ، كنت اسمع زقزقة العصافير واصوات

جميع الحيوانات ، وكنت اتبين اثر نور اسود كالليل لا يغالب سطوة الظلام ، بل كان يؤلمني لمعانه العميق فاطرفت يائساً ورحت في سبات عميق

وبعد وقت دام كأنه جيل استفقت فلفت نظري نور ساطع لم اتمكن من مجابهته لاول وهلة ، فصرت افتح عيني واغمضهما ، فاذا بمكان يشع منه هذا النور العنبري تتوسطه الرياض الغناء ، ويغلب فيه لون الزهر وخضرة الغابات وبريق الذهب ولمعان اوراق الزيتون . وكان هذا المكان يبدو كالماس والبلور ، يمكن للناظر ان يرى في خلاله الوجود ، جميلاً خلابا ، وكان المنظر ينعكس في بحيرة واسعة كأن مياهها تتحرك وتتجدد كمياه المطاحن ،وقد انبعث من هذا المكان نسيم اختلط فيه عبير ذكي ، فتنشقت رائحة الزعفران والعنبر ، والمسك والعطور ، والثمار والازهار ، وشذا يوحي الغبطة والسرور ، فتسلط الطيب علي .

واذا بعرصات تؤدي الى جسر ينفذ الى باب عظيم على مقربة من عين فياضة ، فتراجعت بعض الخطوات .

فوجدتني بمكان اشبه شيء بالفردوس الارضي ، فيه جميع الحيوانات وديعة آمنة ، الفهد يرعى مع الغزلان وتطير البلابل برفقة النسور ، فوق قمم الاشجار التي يتساقط منها الماء الزلال .

شاهدت على منحدر في خلوة من خلوات هذا المكان ، التفاحة المعهودة ، لكنها ذابلة وبقربها تينة جرداء جامدة الاغصان .

اما شجرة الحياة ، فقد بلغت نصيباً وافراً من البهجة والنور ، بقربها

ملاك يحرسها ، بيده سيف من نار ، فما رآني حتى قال :

ـ ما هذا ؟ أتعود الى هنا يا ابن آدم ، وقد طردت بعد ان ظلمت نفسك . اليس لأمثالك في الارض مستقر ومتاع الى حين ؟

واعترضني ملاك آخر قال :

ـ كيف دخلت الى هنا ، فاذا كنت من الاموات فجنة الخلود بعيدة ، واذا كنت من الاحياء . فهذا المكان قد حرم على امثالك ، اتريد ان تستقدم ساعتك . ام ضاقت بك الدنيا حتى تعديت حدود الارض ؟

علق لساني بحلقي وعجزت عن الجواب .

واتاني ملاك ثالث وقال :

ـ اتانا هذا المخلوق الغريب عن طريق نهر الفرات . وما ان دخل حتى شعرت بالشر يتغلغل في هذا المقر الطاهر .

ثم التفت الي وسألني :

ـ ألست انت طيناً مصوراً ؟

واخذ يطاردني بعنف ويهددني بلهيب سيفه ، فلجأت الى بؤرة خالية من الكائنات شردت فيها حتى وصلت الى جسر عظيم قطعته ، فبلغت باباً صخرياً كبيراً يؤدي الى غابة كثيفة تحتوي شجر الحور والسرو تحيط بتلال ومرتفعات تعلوها نماذج من جميع المعابد التي شيدت في الارض ، على ممر السنين والاجيال في جميع الاقطار والبلدان ، من هياكل وكنائس ومساجد ومعابد ومصالي وخلوات ، وقد انتشرت في الهواء رائحة البخور

والصندل والترديس .

وتصاعدت اصوات المصلين من جميع المذاهب ، وفي جميع لغات المعمور فصليت قائلًا :

- ايها الرب الاله العليم بحالتنا ، وبما نحن عليه من بؤس وفاقة ، لم يبق لنا الا هذا الملجأ . فنضرع اليك يا ارحم الراحمين ، انظر الينا بعين رأفتك ، واهدنا الصراط المستقيم . ربنا اتمم لنا نورنا واغفر لنا ، فانت على كل شيء قدير .

فاذا بالملاك المطارد يظهر امامي فجأة ، فقلت له :

- اريد ان اموت هنا في هذا المقر .

فأجاب وقد بدا في صوته شيء من الهدوء والعطف :

- ليس لأي انسان ان يستقدم ساعته ، ألم تعلم ان لكل امة ولكل شخص اجلًا لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون .

- دعني استمع الى اصوات المصلين .

- ما هذه الاصوات الخالدة ، الا اصداء الصلوات المتصاعدة بكل زمان وفي كل مكان ، وذكرى ما استجلبته من فضل وغفران ، على الانسانية البائسة ، فهي لن تنقطع ، وانظر كيف تناثرت حوالينا نجوم السماء فطمست نور الشمس والقمر .

قال هذا وقادني الى ملتقى ثلاثة انهر وارشدني الى الطريق ، فاذا بالظلام يهبط فجأة ، ثم نمت نوماً طويلًا . ولما استيقظت ، وجدتني على

شاطىء بلد غريب فيه جمع غفير من الحجاج العائدين الى بيروت ؛ فأخذوني معهم واعادوني الى الوطن ، وكتمت سري على الجميع .

حمدت الله على ما خصني به من مشاهد ، عدت على اثرها خبيراً بامور الدنيا وشؤون الغيب ، فقد ادركت بالحس ما خفي على غيري من الناس بالعلم والاستقراء .

كنت اسجد مع الساجدين ، واصلي مع المصلين ، لا ابالي بمتاع الدنيا ومباهجها ، استرحم رب العالمين ، لأن لا ملجأ منه الا اليه .

وكنت لا ادري ، كيف اعامل الناس ، وهم يسلكون الطرق المألوفة ، يطوفون حول مصيرهم كالاصنام المتحركة ، يحملون احمالهم من المتاعب كالسندباد الحمال ، ويتلفظون بالاقوال المأثورة دون احياء مضمونها ، حتى اذا تصدى لهم طارىء ترددوا وانتحبوا ، واذا عظم شأنهم ، سكروا وتكبروا وظلموا اخوانهم وضلوا سبيلا .

فلا يسمعون غير صوت اهوائهم ، ولا يفقهون الا الطمع والضجيج ، حتى افقدوا الارض زخرفها .

اما انا المتواضع ، فقد مررت بمغامراتي المستهجنة عند عامة الناس ، فلقبوني بالسندباد البحري .

الا انني حكمت خبرتي بالشدائد وفرّجت كربتي بحسن التدبير ، فجعلت من يقظتي نوراً ومصباحاً . ومن ذكرياتي منارة اضيء بها طريقي الى الادراك الأسمى .

وكان يقيني كبيراً بان سلسلة رحلاتي هذه ، انما قد تمت باذن الله تعالى ، وان القدر المحتوم قد ميزني لاداء رسالة تملأ على الناس .

هل في الوجود كله ابلغ من الفكر رسولا ، ومن العقل وسيطاً ، نتمكن بفضلهما من الكشف على سر الوجود ، مهما اختلفت الآراء والنظريات ؟

فاذا ابتعدت عن تفكير الناس الممزوج فيه الخطأ بالصواب ، فلأنني آثرت رد الامور الى اصولها، فمن جرّد المسائل . من قشورها ، ونظر الى ثمرة الواقع الصافي ، تحقق له ان ما من شيء يدوم على حال ، بل يدول ويتبدل ويتطور معه القياس .

فعلى العقل ايضاً ان يمتد الى صلة الاشياء المترابطة المتطابقة . فنكشف عنه الغطاء ، وتنقشع الغيوم ، وتظهر بعض الضوابط الخفية .

فالامور مرهونة بما لها من مناهل وذبول ، وهي تبدو مرتبطة حلقات وسلاسل كشبكة الصياد ، غير ان الانسان يخشى العاقبة المجهولة كلما يعمل ، فيقف امام مصيره خجولا مكتوف اليدين ، الا انه اذا ما ادرك نتيجة عمله ، بانت له فكرة التعادل والتوازن ، وفهم ان عليه ان يعلم هل هو يريد العمل وراء الستار او على مشهد من الناس ، فيختار بين الرياء والخبث ، بين الصناعة والتصنع ، بين الواقع والخيال .

فلكل من الامور وجهان ومن تمعن بهذا لا يرى شيئاً مستحيلاً .

واخليت حياتي من سليقة الحيرة والتردد ، واصبحت مرشد اهل

المحلة ، وازدادت سعادتي بما كنت اعهده من قوة في نفسي . وجلادة وايمان حي ، واستيعاب الحقائق والمرامي ،

فما من اسطورة تحيا الا كان لها راوي .

وما من شعلة تتصاعد الا وقد كان لها معالج ، وما من بلد طيب الا اخرج نباته باذن ربه .

ومن أدهش ما طرأ علي حقاً ، انني عبثاً حاولت ان اتفقد مكان الدهليز ، فلم انجح .

استعنت بالفعلة والبنائين فحفروا الارض بطولها وعرضها ، فلم يعثروا الا على تراب وحجارة ، كأن قالباً من القوالب كان قد تحطم بحسب قول العامة ، فاختلطت اجزاؤه بالتراب .

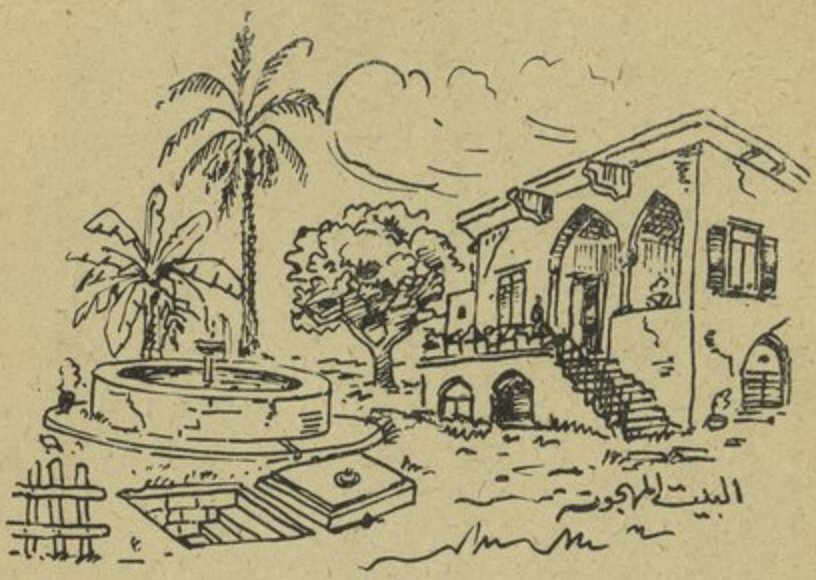

منظر البيت المهجور ، ومنظر البحر من الدهليز

(فصل البيت المهجور)

سفينة اولها رأس فرس
(الرحلة الاولى)

برج عربي شامخ
(الرحلة الثانية)

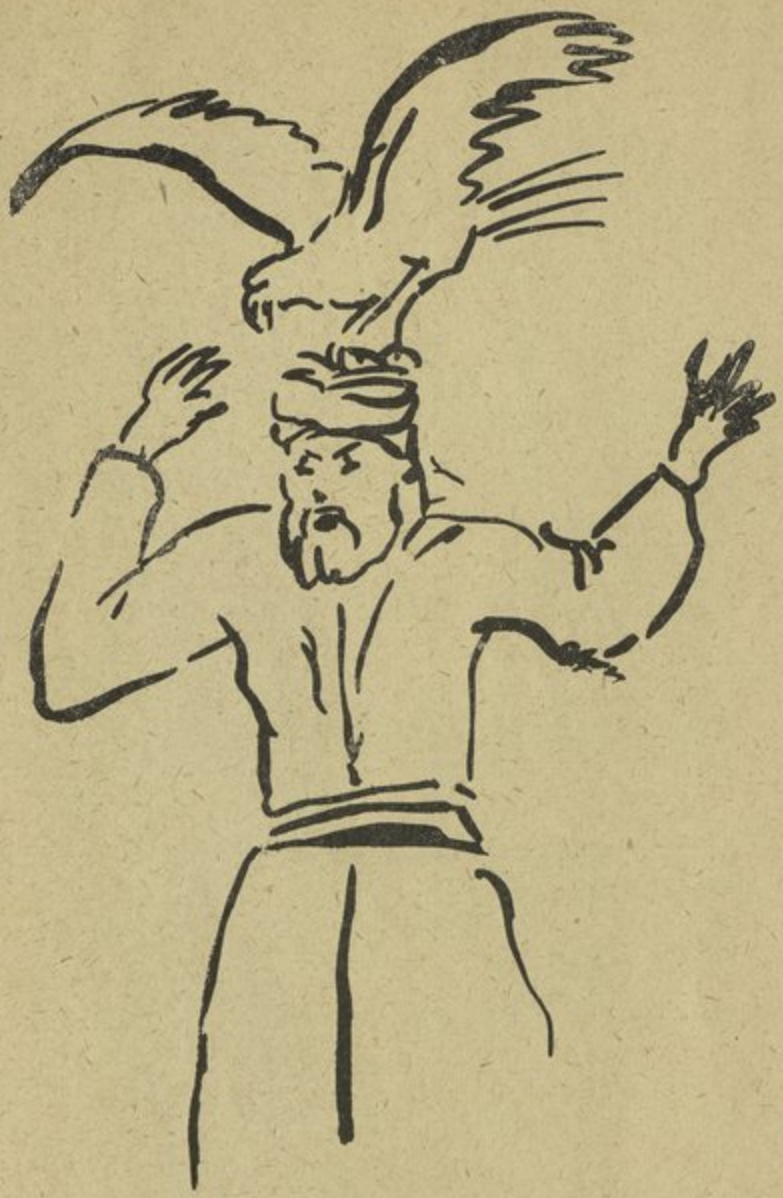

الطائر يحط على رأس شريف (الرحلة الثانية)

قراء على الشاطىء
(الرحلة الثالثة)

الطواف حول ملكة جزيرة الاساطير
(الرحلة الرابعة)

الدرويش

(الرحلة - السابعة)

السفينة

الميناء

الإطار

الخاتمة

لا تعجب لما شاهدته ، في سيرة شريف الاعثر ، من مسائل اشكلت عليك . فقد تكون سيرتك ايضاً مليئة بمثلها . ويصعب عليك ان ترى فيها الانسجام المعهود ، الذي يطمئن اليه العقل ، اللهم الا اذا اجهدت خيالك ، وجمعت ما كان مشتتاً من صورها ، وأعدت سبك الرواية على هواك .

فسيرة كل انسان مجموعة من المتناقضات قد تزول على لسان الراوي الذي ينسج حياتك على غراره ، فتأتي منسجمة متماسكة ، لكنها لا تمت الى الحقيقة الراهنة بصلة ، فتبدو فصولها واضحة جلية كنور الشمس والقمر ، وحركة النجوم والكواكب .

وهل نسيت ما طرأ عليك من حوادث مبهمة غير مفهومة حاكها لك الزمان على منواله المستور ، وقد مررت انت ايضاً باطوار ومعاكسات ، اذا امكن لك ان تعيها في هـذه اللحظة ، ظهر لك من الغربة والوحشة ما يشبه فصول الاساطير

فالحياة فيها اضواء وفيها ظلال .

انت فيها حركة دائمة لا تستوي على حال ، وخاطرك ابداً قلق مضطرب ، لا يترك لك اليقظة الكافية لكشف القناع عن المشاهد التي كانت تثير فيك الحيرة والريبة ،

فاذا ضاق عقلك عن استيعاب الوضع الراهن ، استجلبتك مناطق

الغموض وما فيها من نور كامن .

انت تبحث عن اشياء واشياء ، فلا تجد في النهاية الا نفسك ، تلك النفس المشوهة التعسة .

وما تكاد تتحقق من قصر باعك ، حتى تضحي في عالم الموتى ، ويبقى وجه ربك ذي الجلال .

فانظر اذن الى المجاهل والابعاد ، الى مواطن الاسرار والرموز .

والتفت الى البحر منبت كل تفكير واسع حي ، ففيه هالة وعبر .

انه ينفذ الى الآفاق ، الى قرص السماء ، الى ما وراء الدنيا . فكل شيء فيه قريب وبعيد . انه ينفث من حيل الزمان الف حيلة يكذب بها شهادة العقل والنظر . فالمألوف فيه ضائع ، والمجهول فيه يخالط المعلوم . انه يعكس لون السماء . ويضم الاغوار . فكم من حبيب اخفى ، وكم من مكروه احلّ ؟ انه يصل السبل ثم يفرّقها ، فتتلاشى ، فلا يغرنك اذن خنوع الشواطىء وسكونها ، فقد يعود من عبر . ويتوارى من حضر ، وكل شاطىء آمن . قد يكون خليجه ميناء القدر .

بيروت في هذه القصة

بقلم يوسف ابرهيم يزبك

هذا المزيج من الادبين . ادب الغرب وادب الشرق ، ومن الثقافة الشاملة ، علماً وتاريخاً وفناً ، ومن الخيال السحيق المرمى ، والبيان الحائر في ميناء قدر فكتور حكيم .

وهذا السندباد الفكري الذي سيلفّنا، بعد هذا التمهيد ، بين جناحيه ويطوف بنا عبر الدهور ، ولكنه يظل في بيروت ، ليعرض علينا فلماً مثيراً أخاذاً من حوادث جرت في هذه المدينة ، ثم نروح معه مرّوضي بحار وجوّابي آفاق وروّاد ادغال ، منتقلين من عصر الى عصر ، لنرى الحياة استمراراً مستمراً ، لا جديد فيها الا القديم ، وان جديدها وقديمها لوحدة في الجوهر ،

وهذا القلب الاسطوري الكبير الذي سنرافقه يقارع البحار ، ويكافح الجن ، ويطارد الوحوش ، ليستقر بعد هول اسفاره المقيمة ، ومطاوحه المقعلة . قلباً حلواً عادياً ، ينشد حباً هادئاً عادياً ، على المنبسط الوادع من شطآن بيروتنا المتوارية ـ بيروت الكرنتينا والرميلة، والمدور،

والقلعة ، والشامية ، والشونة ، والسنبطية ، والفاخورة وعين المريسة .. المحلات التي عبثت برمولها قدماً « قمراء » واقدام البيروتيين خلال ألوف السنين ، والتي كانت ، ولا ريب ، موانىء سفن الحضارة الى الغرب .

ان هذا المزيج المعطر في القصة العربية لا عهد للقراء بأن يقرأوه - عنيت القراء الذين لا يعرفون الا العربية وحدها - ولست لأملك التقدير في نجاح « المجازفة ...» ولكني املك الحق في استساغتها ، والنشوة بالكثير من مرقصاتها ، واملك الحق في الحكم بأنها تضيف الى العربية نبتاً زاهياً جديداً ، على رغم مما في بعض سطورها الجامحة من عبارات خلج .

ان الاستاذ الكبير فكتور حكيم الذي سلخ عشرين سنة من شبابه الغض في تعريف ادباء العربية الى قراء الفرنسية ، وكان فيما كتبه عن انتاجهم متنازعاً بين قلبه وضميره : يحب ان يشيد بهم ليوصلهم الى القلك ، فيمسك العدل بقلمه النبيل المحب ليقف به حيث يجب ان يكون . ان صديقنا وزميلنا فكتور حكيم الذي خدم الادب العربي بخير ما يخدم به هذا الادب ، يدشن اليوم انتاجه العربي بثروة من صميم هذه الارض التي اسمها بيروت ، يصح ان يرى فيه كل منا وجه جدوده - او وجهه ، في حكاية الاستمرار .

ولولا هذه المحلية التاريخية في كتابه البلدي لما اجزت لنفسي ان امهد له ولولاها ، لنصحت لصديقي بأن يقول لطه حسين ، عميد الادب

العربي ، ان يقدم انتاجه الجديد لقرائه الجدد .

وحسبي من نصحي ان صديقي صاحب « ميناء القدر » يستحق النصح : ذلك لأن « ميناء القدر » والادب السامي والقلم الخصيب ثلاثة في واحد، اسمه : فكتور حكيم . رعاه الله .

الحدث غرة كانون الاول ١٩٥٥ يوسف ابرهيم يزبك

فهرست

	صفحة
مقدمة : للاستاذ سعيد عقل	(ا)
الاهداء	(د)
المقدمة	٣
قصة البيت المهجور	٤
الرحلة الاولى ـ فطرة الطبيعة	٨
الرحلة الثانية ـ المعاكسات	١٨
الرحلة الثالثة ـ الغرام المفقود	٢٨
الرحلة الرابعة ـ بلاد الاساطير	٣٧
الرحلة الخامسة ـ جزيرة الاعماق	٤٦
الرحلة السادسة ـ بلاد القدر	٥٦
الرحلة السابعة ـ الخلود	٦٤
رسوم ـ بريشة الرسام سعدي	٧٣
رسوم رمزية ـ بريشة الرسام عارف الريس	٨٠
الخاتمة	٨٣
بيروت في هذه القصة : للاستاذ يوسف ابرهيم يزبك	٨٥
ـ رسم الغلاف للرسام بوريس نوفيكوف	

U. B. LIBRARY

DATE DUE

A.U.B. LIBRARY

حكيم، الدكتور
ميناء القدر
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01042555